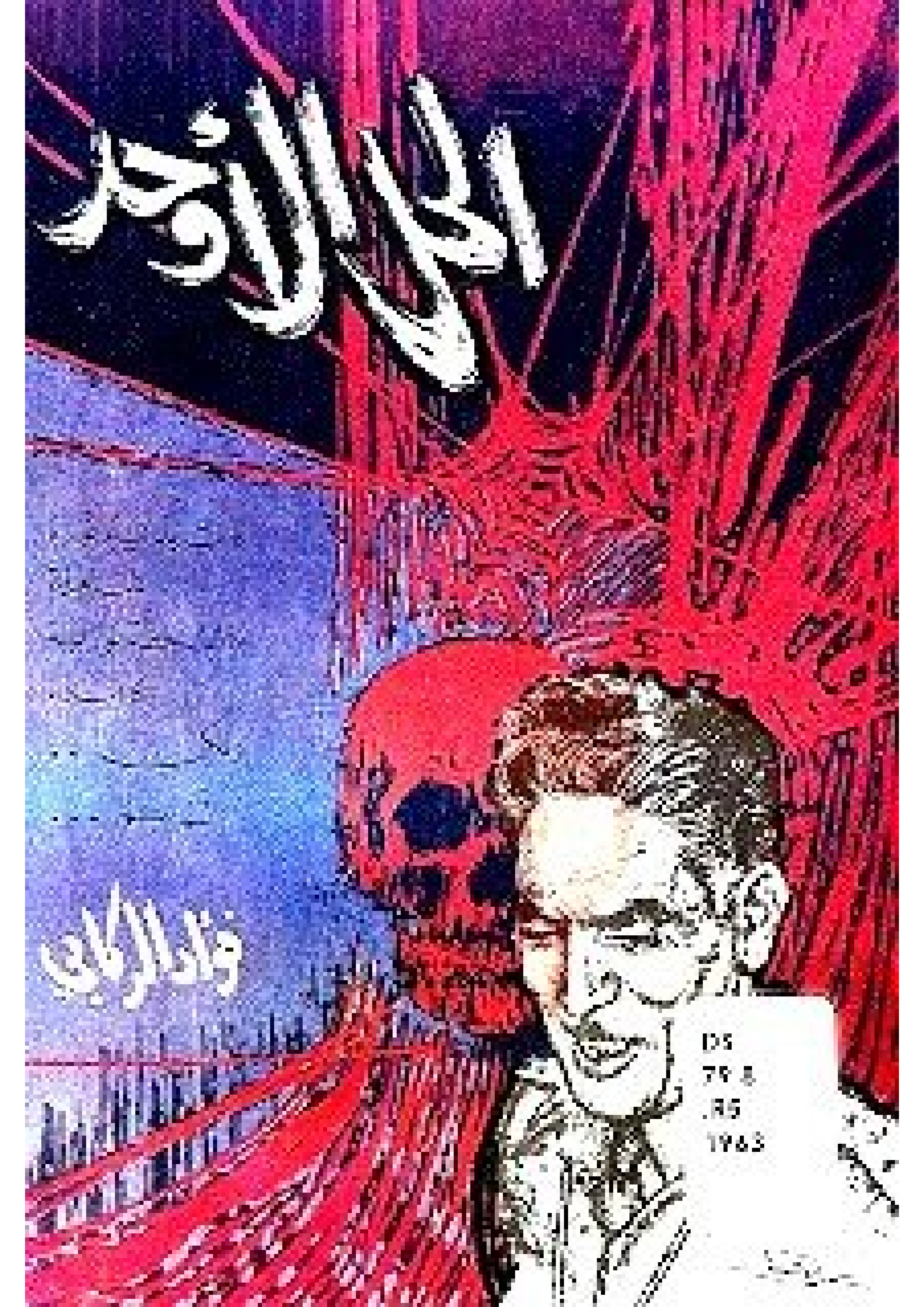

فؤاد الركابي
DS
79.5
.R5
1963



بقلم

فؤاد الركابي



مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

إلى

الرّفيق الشّهيد

عبد الوهّاب الغريري

فؤاد الركابي

لماذا اليوم لا غداً ؟

لماذا أضع هذه الصفحات بين يدى القارىء العربى اليوم ، وفى هذا الظرف بالذات ؟

لماذا أجهد نفسى اليوم ، أن أخط هذه الصفحات، بعد صمت دام نحواً من أربع سنين ؟

أما كان من الأجدى دراسة تلك الأحداث التى شهدتها تلك السنوات دراسة علمية موضوعية لتكشيف مفاهيم النضال العربى وتركيزها ؟

وهل هذه الصفحات تسجيل لتلك الأجواء المثقلة بأوزار ذلك الطغيان المدمر الذى ناء تحته الشعب ؟ . . . أم هى تسجيل لأمجاد الشعب فى نضالاته ؟

أم لا هذا . . . ولا ذاك . . . بل هى تسجيل لبطولات فردية ، وتكريس لغرور الأفراد ، على حساب نضالات الشعب وأمجاده ، وبباعث من الرغبات الشخصية الجامحة .

هذه وغيرها كثير من الأسئلة التى ترد للذهن ، وتلح عليه إلحاحاً ضاغطاً ، حاداً وعنيفاً ، ولا سبيل للخلاص من إلحاحها وضغطها إلا بالإجابة عليها .

* * *

إن قصة اغتيال عبد الكريم قاسم ، رغم كل ما تركته هذه القصة ، فى أذهان الجماهير من صور البطولة والبسالة والإقدام ، قد وضعت حولها ، بعض الأوساط ، علامات الاستفهام . بل وأكثر من ذلك ، قد أمسكت ، هذه الأوساط ، بيدها سياط الاتهام ، تمزق بها جلد هذا الحدث التاريخى البطولى ، الذى دخل تاريخ نضال شعبنا فى العراق .

لقد قيل إن هذه العملية ، كانت تسجيلا عملياً للانحراف عن الطريق العقائدى . . . لقد قيل بأنها عملية استبد بها فرد أو أفراد ، وإنها لم تكن من الثورية فى شىء . . .

لقد قيل ذلك ، وقيل غيره كثير !

لقد قيل ذلك ، وقيل غيره كثير ، بالرغم من أن هذه العملية قد استقرت فى وجدان الشعب ، بجزء من نضالاته وبطولاته .

وعلى أية حال ، فإن فى كتابة هذه الصفحات جواباً على كل هاتيك الأسئلة ، ورداً على هاتيك الاتهامات ، ووضعاً لهذه القضية التى نحن بصددها وضعاً صحيحاً ، وعلى مستواها الصحيح .

بل وأكثر من ذلك ، إننا بمتابعتنا لسياق الأحداث ، سنلمس معالم الأسلوب الثورى الذى جرت عليه تلك الأحداث — إن لم نقل جوهره — . . .

سنلمح من خلال نقاب الاتهام الكثيف ، بعض الحقائق ،

تعرض نفسها ببساطة هي بساطة الحق ، أمام من أوسعوا هذه العملية تشهيراً وتقريعاً . . .

سنلمح من خلال نقاب الاتهام الكثيف ، أن هذه العملية كانت نصراً للأسلوب الثورى ودعماً لعقائدية العمل والنضال ، ولم تكن خروجاً على الأسلوب الثورى والعمل العقائدى .

علينا قبل الشروع بالقصة ، وبسرد أسرارها وخفاياها ، أن نحدد معنى الأسلوب الثورى بالنسبة لهذه العملية .

ولكى نحدد ذلك ، علينا أن نجيب على السؤالين التاليين :

(ا) هل كانت محاولة اغتيال قاسم مجرد محاولة اغتيال ؟

(ب) هل محاولات الاغتيال هى دوماً ، وبحكم الضرورة ، خروج على الأسلوب الثورى ؟

إن الجواب على السؤال الأول سنجده فى تضاعيف هذه الصفحات . . . سنجد أن هذه العملية لم تكن ، لا على صعيد الخطة ولا على صعيد التنفيذ محض محاولة اغتيال مغامرة ، قام بها بضعة أفراد ضد فرد واحد ؛ بل كانت العملية بمجموعها ، خطة ثورية متكاملة تستهدف الإطاحة بنظام قاسم كاملا ، وتأمين الطريق للقوى القومية التقدمية لكى تمسك بزمام الموقف وتقيم حكما قومياً تقدمياً فى العراق .

الجواب على هذا السؤال الأول ، سنجده فى تلك التحضيرات الثورية الكاملة ، والمهمات الثورية العديدة لأكثر من قوة مدنية أو عسكرية .

سنجد خلال الصفحات القادمة ، أن طلائع الجيش قد أعدت نفسها للمساهمة فى الخطة . . . وسنجد أن القوى القومية بأسرها قد أجمعت على إسناد الخطة ودعمها ، وأكدت ضرورتها ، وأن عدداً غير قليل من الفئات القومية الأخرى ، قد أسهمت فى أداء دورها الطبيعى فى الخطة ، بعد أن أجرى «الاستفتاء السرى» حولها بين صفوف جميع القوميين .

أما الجواب على السؤال الثانى ، فهو جزء من التراث العقائدى النظرى لنضالنا القومى . . . الجواب على هذا السؤال ، لن يكون إلا من خلال تحديدنا للأسلوب الثورى .

الأسلوب الثورى هو وحده طريق بلوغ الهدف الثورى . . . الأسلوب الثورى هو السبيل الذى لا سبيل سواه ، أمام الحركة العربية الثورية فى معاركها ، من أجل أهداف الشعب القومية .

والأسلوب الثورى لا يقتصر على صفات ثابتة فى ذاتها غير متطورة ولاحركية . . . الأسلوب الثورى هو كل أسلوب يستخدم قوى الشعب أو جزءاً منها من أجل الهدف الثورى ، خلال مراحل ثورية متعاقبة .

فالحركة الثورية ، أية كانت ، قد تستخدم ، فى حالات خاصة، مختلف الوسائل التى قد تبدو غريبة عن النهج الثورى ، ولكن بشرط ألا يصاب أسلوبها الثورى الأصيل بالاختلال ، ولا معاييرها العقائدية بالاضطراب ، بل تظل مالكة لصوابها ، محتفظة برباطة جأشها ، لئلا يغدو الأسلوب الثورى الأصيل فى خدمة تلك الوسائل والأساليب الطارئة العارضة ، بدلا من العكس .

قد تستخدم الحركة الثورية الاتفاقات والتسويات والمناورات والتوفيقات والإصلاحات ، رغم ما يبدو من أن هذه ليست من الأسلوب الثورى فى شىء ، بل من الأساليب الإصلاحية . ولكن الحركة الثورية قد تستخدم هذه جميعاً كوسائل وأساليب ثانوية طارئة ، ويظل الأسلوب الثورى هو الأسلوب الثورى الأساسى والمعيار فى العمل والنضال . . . تكون هذه الوسائل والأساليب خطوات طارئة فى العمل السياسى ، تمارسها الحركة الثورية عند ما يكون فى ممارستها ترسيخ للتيار الثورى ، وزعزعة لأسس الحكم المعادى وقواه ، واختصار لمراحل الطريق الثورى ، نحو الهدف ، وعند ما تجمع ظروف الواقع الثورى على أن ممارسة أى من هذه الوسائل أمر لا مفر منه بالنسبة للحركة الثورية ، لتكون قادرة على اجتياز مرحلة ثورية معينة إلى المرحلة الثورية التى تليها .

ولعلنا لا نجانب الحق والواقع ، إذا ما ذهبنا إلى أن ثورية أية حركة من الحركات ، تقاس أحياناً بمقـــدار مرونتها الثورية ،

ومطاوعتها ورفضها للجمود على أسلوب واحد من أساليب العمل والنضال . .

الحركة الثورية الأصيلة ، هى الحركة التى تشخص تشخيصاً سليما كل ظرف من الظروف ، وتختار له الأسلوب الملائم .

فالثورية مفهوم مرن مطاوع . . . والعقائدية فكر حى متطور يعيش فى الواقع ومن أجله .

وليس من الثورية أن نفرض أسلوباً واحداً جامداً على الحركة الثورية تلتزم به ، فى جميع الظروف والأحوال ، بل تقدسه ولا ترضى عنه بديلا .

الثورية الحق ، هى إخضاع جميع أشكال النضال للأسلوب الثورى الذى يوصل الحركة الثورية للنصر ، ويفضى بها للهدف .

فمن أجل بلوغ الهدف الثورى ، على الحركة الثورية ألا تجمد على أسلوب واحد من أساليب العمل والنضال . . . ألا تترفع وتستعلى حتى عن ممارسة الأساليب الإصلاحية والمشروعة . . .

عليها ألا تخشى ذلك ، طالما كانت هناك الصلة القائمة بين الهدف والأسلوب .

إن مبعث تقييمنا لأى أسلوب من أساليب العمل والنضال ، لا يمكن أن يكون من خـــلال نظرتنا لسلوك الحركة الثورية أو موقفها فى فترة محدودة من الفترات . . .

إننا لو فعلنا ذلك ، لأخضعنا الثورية ، حركة ومحتوى ، لمنطق ضيق فى المفاهيم المثالية الجامدة . . .

إننا لو فعلنا ذلك ، لأنكرنا حركية الأسلوب الثورى والمرونة والمطاوعة الثوريتين فى هذا الأسلوب .

إن علينا ونحن نبحث الأسلوب الثورى ، ألا نبحث عنه فى الظواهر العابرة والمواقف الموقوتة ، وإلا كنا كمن يريد أن يبحث عن المفتاح فلا يجد إلا القفل ! . . . إننا لو فعلنا ذلك ، لهبطنا بالأسلوب الثورى من مستواه الحى إلى مستوى سكونى جامد .

إن علامة الصحة والحيوية فى الأسلوب الثورى ، لا نجدهما فى الصرامة والجمود والضبط المفتعل ، بل نجدهما فى قدرة هذا الأسلوب على استيعاب جميع الأساليب الحركية الأخرى ، وإخضاعها لخدمته ، ولغاية بلوغ الهدف الثورى .

إن تاريخ الحركات الثورية الناجحة فى العالم ملىء بالشواهد على أن الأسلوب أو الأساليب التى أنتجتها تلك الحركات كانت دوماً تتسم بالمرونة والمطاوعة والقدرة على الاستيعاب ، من أجل بلوغ الهدف الثورى .

ففى ثورة الجزائر استخدم الثوار جميع الأساليب التى استوعبها الأسلوب الثورى ، من أجل بلوغ الهدف الثورى الكبير .

استخدم الثوار واستغلوا التناقضات القائمة فى تركيب المجتمع الفرنسى . . .

استخدم الثوار الحرب النظامية فى الجبهة . . .

استخدم الثوار حرب العصابات والغارات . . .

استخدم الثوار أسلوب « اضرب واهرب » فى باريس وغيرها من المدن الفرنسية ، وفى الجزائر نفسها . . .

وفى باريس بالذات كانوا يشنون غارات وهجمات ليلية ، أفزعت العدو ، يقومون خلالها باغتيال كبار الخونة من العرب الذين سولت لهم أنفسهم مد أيديهم لحكومة باريس وطعن نضال الشعب أو تضليل قطاعات من الشعب والحيلولة دون تعبئتها مع الثورة . .

استخدم ثوار الجزائر كل أسلوب من أجل بلوغ الهدف الثورى ، ذلك أن الأسلوب الذى انتهجته ثورة الجزائر ، كان أسلوباً ثورياً أصيلا فيه من المرونة والمطاوعة والسعة ، ما استطاع بها أن يحتضن جميع الأساليب الأخرى ، وأن يخضعها لطبيعته الثورية .

إن ثورة الجزائر التى خاضها الشعب بقيادة جبهة التحرير الوطنى الجزائرية زهاء سبع سنين مليئة بالمواقف الثورية الخالدة ، كانت

كافية للتدليل على أصالة أسلوبها الثورى ، رغم ما مارسته من التسويات والتوفيقات والاغتيالات التى خضعت جميعها لمصلحة الثورة فى اندفاعها نحو الهدف الثورى .

مثل ذلك ، وربما أكثر من ذلك ، حدث أثناء حرب المقاومة الفرنسية ، ضد الاحتلال النازى ، حيث استطاعت حركة المقاومة أن توجه أشد الضربات لجيوش الاحتلال ، سواء بالهجمات والغارات المفاجئة على مواقع العدو ، أو باغتيال كبار النازيين وكبار الخونة من الفرنسيين الذين تعاونوا مع النازى .

ولم تقم بهذه الفعاليات زمر أو عصابات إرهابية مشتتة مبعثرة ، بل كانت هذه الفعاليات ، بمجموعها ، تصدر عن قيادة مشتركة لهذه المقاومة ، تمثلت فيها قيادات أحزاب ومنظمات ثورية عديدة .

إننا ونحن نؤكد ذلك ، لا ننكر أن هناك بعض الحركات ، قد اتخذت من أساليب الاغتيال نهجاً أساسياً لها فى العمل والنضال ، فابتعدت عن الروح الثورية وجانبت طبيعة العمل الثورى .

هناك ، مثلا ، حركات واسعة عرفتها أوربا ، وبخاصة روسيا ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ضمت بعض الشباب المثقف المتمرد الذى أحس بطغيان

الحكم القيصرى ، فبحث عن وسيلة للتعبير ، فلم يجدها إلا فى الاغتيال .

هذه الحركات ، رغم صدق أبنائها وإخلاصهم ، ورغم إحساسهم بثقل الحكم القيصرى ، إلا أنها لا يمكن أن تعتبر فى فى عداد الحركات الثورية فى العالم ، لا لمجرد أنها استخدمت الاغتيال السياسى ، بل لأنها استخدمته نهجاً لها فى التغيير .

وإننا تمسكا بهذا الفهم وانطلاقا منه ، يمكننا أن نقيم تلك الحركات السياسية والمنظمات العسكرية التى تعتمد الانقلابات العسكرية ، أسلوباً لها فى العمل والنضال .

إن حركات أو منظمات كهذه ، تنتفى عنها صفة الثورية لأنها تعتمد الانقلاب العسكرى أسلوبها الأساسى الذى تستخدمه فى جميع الظروف وفى ظل جميع الشروط والأحوال ، والذى تخضع له كل ما عداه من وسائل وأساليب أخرى . . . ومعنى ذلك أنها عاجزة عن التحرك ، إلا من خلال هذا الأسلوب وحده ، حتى إننا لنراها ، أحياناً ، وهى تمارس بعض الفعاليات الشعبية ، تحاول أن تتخذ لها طريقاً يدعم أسلوبها الأساسى : الانقلاب العسكرى ، فتنظم التظاهرات والإضرابات وبعض الفعاليات الشعبية الأخرى ، لا إيماناً منها بالشعب ، أو بالعمل الشعبى ، وإنما لإبلاغ الظروف النقطة التى تستطيع عندها من تنفيذ أسلوبها

الانقلابى المحض ، فتضع السلطة فى يد زمرة مغامرة من العسكريين ، لا هدف لها سوى الحكم .

ومثل هذه الحالات ، نجدها ، تتكرر مثلا ، وبشكل أكثر وضوحاً ، فى دول أمريكا الوسطى والجنوبية .

على أن الحركة الثورية المؤمنة بأن الشعب هو الوسيلة ، بقدر ماهو الغاية ، قد تمارس الانقلاب العسكرى كإجراء يرتبط بخططها الثورية ، ويكون فى خدمتها ، ولغاية الهدف الثورى ، وذلك عندما تكون الشروط والظروف قد أملت الأخذ بهذا الأسلوب ورشحته طريقاً لبلوغ الهدف .

فى هذه الحال ، يكون الانقلاب العسكرى أسلوباً ثورياً ووسيلة من وسائل العمل الشعبى الثورى ، لأنه جزء من الخطة الثورية ، فى ظرف من الظروف ، استعداداً لامتلاك القوى الثورية مقاليد السلطة والحكم .

ومهما يكن من شىء ، فإن محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم ، التى نستعرض قصتها فى هذه الصفحات ، لم تكن مغامرة فرد أو أفراد ، بل كانت جزءاً من عملية ثورية كاملة — كما سلف القول ، وكما سيرى القارىء بعد قليل ...

عملية ثورية ... لا اغتيال .

عملية ثورية . . . وليست مغامرة فرد أو أفراد .

سيرى القارىء أن عملية الاغتيال هذه لم تكن سوى مقدمة لتخطيط ثورى كامل وواسع المدى . وإن تقييمنا لهذا التخطيط الثورى ، لا يمكن أن يتم من خلال حكمنا على مرحلة واحدة من مراحله فحسب . . .

إن حكمنا على هذا التخطيط ، سيظل مبتوراً ناقصاً إذاماقصرنا نظرتنا على المرحلة الأولى من مراحل تنفيذه . . .

ولعل فى الصفحات التالية ، إيضاحا لبعض الخطوط العريضة لتلك الخطة الثورية التى تقرر أن تبدأ بعملية الاغتيال ، وأن تنتهى ببلوغ هدف أساسى بتأليف حكم قومى وتكوين مجلس ثورة قومى يمكن أن تنطلق بهما إلى مرحلة ثورية أعلى .

فإذا ما انتهينا من ذلك ، أمكننا أيضا أن نشير إلى أن تمزيق هذه العملية بسياط الاتهام ، هو — فى حد ذاته — إما أن يكون موقفاً مبعثه الأساسى فهم لاثورى ، عاجز عن تقييم الأسلوب الثورى ، بأرحب أشكاله وأوسعها ، وإما أن يكون موقفاً نابعاً عن منطق مغرض ، يسعى للتشويه ، قبل أن يسعى للفهم ، وهو بالتالى موقف سطحى ، لاثورى أيضا .

٭ ٭ ٭

وبعد . . .

ماكان لى أن أنشر هذه الصفحات التى طويت ما فيها من حقائق وأسرار نحواً من أربع سنين إلا بعد إندثار الحكم القاسمى ، ا فى نشرها ، قبل ذلك ، من فضح لعدد غير قليل ممن أسهموا فيها...

فكان الكتمان الأخلاقى المسئول ضرورة من ضرورات اتصال القوى فى العراق وواجب من واجباته . .

ولقد احتملت هذه الحقائق مشقة الجلد بسياط الاتهام أربع سنين ، إذ كان الكتمان الملتزم أثمن بكثير من الدفاع المفضوح .

أما اليوم . . . فقد آن لنا أن نقول كلمة الدفاع عن الحق المجلود . . .

آن لنا أن نرد على فرقعة تلك السياط بكلمة من دفاع الحق ..

وأخيراً . . . وبعد ذلك . .

فهذه صفحات احتوت بعض ذكرياتى عما أحاط هذه العملية من أحداث وأسرار ، وبقيت هناك جوانب أخرى ، أرجو أن ترى النور فى وقت قريب .

وأود أن أستميح القارىء عذراً ، إن وجد فى هذه الصفحات ما قد يوحى بأنى أنا الذى لعبت الدور الأساسى الأول فى هذه العملية ، أو ماينم عن أى تأكيد شخصى فيها . . . فما كنت سوى

رفيق لعدد من رفاقنا فى القيادة القطرية للحزب وغيرهم من الرفاق الآخرين ، ولعدد آخر من أخوة النضال فى الحركات والفئات القومية الأخرى . . . وما هذه الصفحات سوى ذكرياتى أنا فى تلك الفترة العصيبة القاسية من تاريخ نضالنا فى العراق ، تخرج اليوم للنور ، بعد أن كبتتها قوى الظلام نحواً من أربع سنين ، كتبتها تكريساً لنضال العراق الباسل ، وتحية لتاريخه الملىء بالبطولات .

فإلى ذلك المشهد من أوله !

إلى قصة الحل الأوحد !

١

كان يوماً من أيام الحسم فى تاريخ نضالنا . . .

كان يوماً واجهت فيه جماهير شعبنا ، الأحداث المتحالفة عليها من كل صوب بأعصاب متوترة . .

كان يوماً من تلك الأيام حفرت لحظاتها فى الذهن حفراً . .

كان يوماً لا يمكن أن ينسى .

ذلك هو اليوم التاسع من مارس سنة ١٩٥٩

فى ذلك اليوم بدا واضحاً أن عبد الكريم قاسم قد تمكن من قمع ثورة الموصل وأن أعوانه من العملاء والأجراء قد تمكنوا أن يسكتوا صوت الثورة .

كان بالأمس صوت مذياع الثورة يهدر فى أسماع الجماهير ينادى بأن الثورة ستطبق على وكر الطاغية لتدكه .

أما فى ذلك اليوم فقد اختنق ذلك الصوت وصمت — كما يبدو — إلى الأبد . .

وبدأت الأخبار تنهال من مدينة الموصل الباسلة تردد أنباء الجرائم الوحشية التى اقترفها الشيوعيون والشعوبيون هناك . .

لقد اقترفت العناصر الحاقدة على العروبة جرائم تقشعر لها الأبدان .. وتقطع نياط القلوب .. لقد أحرقت أسر بكاملها .. دفن الأحياء فى أفنية دورهم .. هتكت الحرمات ولم يعد للإنسانية معنى !

وامتدت يد الحقد الأسود الذى استخدم أخس أساليب الإرهاب ، لخنق أى صوت عربى إلى جميع أرجاء العراق .

امتلأت السجون بالألوف من الأحرار .. كانت البيوت فى كل مكان تقتحم وتداس حرماتها دونما رادع من ضمير .

الإرهاب الأسود الدامى يبسط جناحيه الرهيبين على العراق الحبيب ..

بدا أن جميع قيم الإنسان قد أذلت .. وأن الإنسان قد مرغت جبهته فى التراب ..

فى ذلك اليوم المحفور فى ذاكرة الجيل ..

فى ذلك اليوم ، كنت مختفياً فى إحدى الدور فى حى « راغبة خاتون » بالأعظمية — بغداد ..

كنت مختفياً والأنباء المرعبة السوداء تتوالى ، والأحاسيس المتناقضة تنتابنى وتهزنى من الأعماق ..

كنت مختفياً على بعد خطوات من بيت جلال الأوقاتى قائد القوة الجوية لحكومة قاسم ، وعلى بعد خطوات أخرى من بيت ماجد

أمين المدعى العام لحكومة عبد الكريم قاسم فى محكمة جزر الشعب ..

كنت قد انتقلت إلى هذه الدار قبل ثورة الموصل ، وتركت أسرتى فى بغداد الجديدة . .

كنت قد انتقلت من هذه الدار لكى أنجو من رقابة قاسم التى بدأت تشتد علىّ فى الآونة الأخيرة . . والتى بدأت تقيد خطواتى وتحركى . . فكان انتقالى إلى هذه الدار هو بداية الإعداد للتحرك من أجل هذه الثورة المنتظرة . . تحركت وتحرك جميع إخوانى فى العمل والنضال . .

كانت الدار صغيرة تحتوى على غرفتين . . تحيط بها حديقة صغيرة . وكانت تملأ هذه الدار قطع من الأثاث البسيط . . وكانت ثلاثة أجهزة للراديو قد وضعت فى هذه الدار أعدت لغرض الاستماع لعدد من الإذاعات فى آن واحد ، ومسدس من النوع المسمى — نصف ويبلى — مع عدد من الطلقات ، أعد للدفاع عن النفس ، فى حالة مداهمة قطعان الإرهاب الأحمر للدار . .

كان الداخل إلى هذه الدار ، يوم إعلان ثورة الموصل ، يجدنى مع بعض الإخوان مشدودين كلاً إلى جهاز من أجهزة الراديو . . أحدهم ينطلق هادراً بلسان ثورة الموصل الباسلة والآخر مرتفعاً بصوت العرب من قلب القاهرة والثالث صوت مبحوح متشنج ينطلق من إذاعة عبد الكريم قاسم .

كان الداخل إلى هذه الدار ، فى تلك اللحظات العصيبة ، يرى نموذجاً مجسماً لتمزق جيل عربى مناضل صاعد . .

كان الجميع يحسون فى صباح ذلك اليوم : يوم ٩ مارس ١٩٥٩ ، بأن الفاجعة الدامية قد نفذت بكل ما فيها من أحاسيس ومشاعر مؤلمة إلى الأعماق . .

كنا نحس فى تلك اللحظات ثقل تحركنا وصعوبته . .

إننا لم نفقد الإيمان . . ولكن خطواتنا كانت ثقيلة حتى بدا لنا كما لو كانت أقدامنا مشدودة إلى الأرض . . ولكنا عزمنا بالرغم من ذلك كله على أن ننتزع أقدامنا من الأرض إنتزاعا . .

عزمنا على أن نتحرك . .

وفعلا فى عصر ذلك اليوم خرجنا بمظاهرة فى جانب الكرخ فى بغداد فى محاولة أخيرة لدعم الثورة . . ولكن من المؤسف أن الثورة كانت لفظت أنفاسها الأخيرة ، ولم يكن بالإمكان استقطاب قوى جديدة من الجماهير لمواجهة حكم الطاغية . .

لقد بات من المؤكد آنذاك أن القوى المنتظر تحركها فى بغداد وفى وزارة الدفاع بالذات هى الأخرى كانت أقدامها مشدودة إلى الأرض . . كانت قد فقدت القدرة على التحرك فى اللحظة الحاسمة .

الإرهاب يسود فى كل مكان . . الدماء العربية الغزيرة تسفك

دون حساب .. أصوات الويل والألم ترتفع بوجه السماء ، والعراق العربى الحبيب بدا لقمة سائغة يزدردها الوحش الشعوبى الجاثم صدر العراق . .

فى تلك اللحظات كان كل فرد منا يتمنى على القدر لو أنه استطاع أن يلحق بقوافل الشهداء لقاء أى نصر يسجله لأمته المفجوعة بدمها وأبنائها . .

فى تلك اللحظات كانت أحاسيس كل فرد منا هى أحاسيس الفرد العربى المتشبث بمصيره ومصير أمته ،حتى آخر قطرة من دمه . .

ومن خلال هذه الصورة المرعبة . . كان الذهن ينجلى رويداً رويداً . . كان الذهن ينجلى ليرى أن الركيزة التى يستند إليها ويعتمدها هذا الوحش الشعوبى الوالغ بدم الأحرار هى عبد الكريم قاسم . .

كان قد اتضح فى الذهن أن ضربة حاسمة توجه إلى هذه الركيزة ، تطيح بذلك الوحش الذى ينشب أظفاره وأنيابه بجماهير أمتنا فى العراق . .

كانت هناك حركة شعوبية منظمة وبتخطيط منظم مدعمة بالتجارب وبالسند الدولى هى التى كانت تقف وراء ذلك كله . .

وكان يبدو أن هذه الحركة تثبت أقدامها يوما بعد يوم . . وإنها تقضى على قوى جماهيرنا شيئاً فشيئا بخطة محكمة مدروسة . .

كانت أحاسيس تلك الفترة ومشاعرها التى تعتمل فى نفس كل فرد منا هى أحاسيس دوامة مفجعة مؤلمة ، وليست أحاسيس نابعة عن منطق علمى مدروس . . كان الواقع قد فرض علينا أن نخضع لردود الأفعال أكثر مما هىء لنا أن نخطط للقيام بالأفعال . .

ولكن لم تكد تمر بضعة أيام على النهاية المحزنة التى انتهت إليها ثورة الموصل ،حتى بدا الذهن ينجلى رويداً رويداً .. من غمائم تلك المأساة . . حتى عاد كل فرد منا إلى نفسه يناقش نفسه ويناقش واقع العراق وإمكانيات العمل .

كان كلما ازداد الذهن جلاء ، كلما تأيد أن الركيزة التى يستند لها الطوفان الشيوعى الشعوبى الدامى هى عبد الكريم قاسم . .

من هنا بدأت مرحلة الأعداد للعمل من جديد . .

لقد كنت مع كل عضو من أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث العربى الاشتراكى فى العراق، نحس بالضرورة المحتومة للعمل والتحرك . . ولم نكن منفردين فى مثل هذا الشعور . . فقد أحسسنا بعد فترة قصيرة من الوقت أن جميع القوى القومية تشاركنا هذا الرأى . . وهى مستعدة لوضع اليد باليد . . بل القلب مع القلب من أجل ذلك . .

كان الرأى يتبلور ، كاجماع منقطع النظير ، على ضرورة هدم

الركيزة الممثله بعبد الكريم قاسم والتى تستند عليها القوة الحاقدة والعدوة والعميلة . .

وبعد بضعه أيام من ثورة الموصل اجتمعت القيادة القطريه للحزب لتناقش الموقف . . فبدا واضحا أن الجميع تخامرهم فكرة واحدة . . هى فكرة هدم الركيزة هذه . . والقضاء على عبد الكريم قاسم .

كان واضحا أيضاً أنهم كانوا يعقدون فى ذلك إجماعا حزبياً عاماً يدعمه إجماع من جميع الفئات القومية الأخرى ، فضلا عن إجماع جميع جماهيرنا القومية فى العراق على ذلك .

كنا ونحن نعد إعداداً أوليا لهذا الأمر نتلقى بعض العروض من بعض القوى والفئات القومية الأخرى للمساهمة فى مثل هذه العملية .

بدأت مرحلة الإعداد للعمل . . بدأت مرحلة التفكير الجدى فى التحرك ولكن مجرد التفكير وحده لا يوفر مقومات التحرك .

كان علينا فى ذلك الوقت أن نتغلب على عديد من العقبات والعوائق . . كان علينا أن نهيء السلاح الضرورى وأن يدرب الأعضاء تدريباً متقناً على السلاح . . وأن نضع الخطة العملية الناجحة . . وأن نخلق من حولنا الظروف الموضوعية . . ولو كحد أدنى لنجاح تنفيذ الخطة .. وأن تؤلف ثلة من الفدائيين الشباب ..

كنا قد فكرنا قبل ذلك، فى القيادة، بعملية لاغتيال عبد الكريم قاسم ، ولكننا بعد دراسة هذا الموضوع أقلعنا عن التفكير بتنفيذه . .

كان ذلك قبل ثورة الموصل بأقل من شهر . . عندما اتصل بى الشهيد رفعت الحاج سرى بواسطة الرئيس الأول الركن صبحى عبد الحميد .

لقد زرت صبحى عبد الحميد فى داره .

كان ذلك فى مساء أحد أيام شهر شباط (فبراير) ١٩٥٩ بعد استقالتى وخمسة وزراء آخرين من وزارة عبد الكريم قاسم . . أطلعنى صبحى عبد الحميد على رأى الشهيد رفعت الحاج سرى باستعداد الجيش للتطويح بقاسم . . وسألنى عن مدى استعداد حزب البعث فى الإسهام بهذه العملية . . وسأل بشكل خاص عن مدى استعدادنا لتولى مهمة قتل قاسم فى هذه الخطة الانقلابية .

كان الحديث بينى وبين هذا الضابط الشاب حديثا عمق إيمانى بأن الجيش العربى فى العراق لن يستنيم لطغمة باغية تتحكم فى مصير شعب بأسره . .

لقد بحثنا عملية اغتيال عبد الكريم قاسم وأبديت استعداداً أولياً للإسهام فى العملية . .

وعند ما عدت فى اليوم الثانى لأجتمع بالقيادة وجدت إجماعا منقطع النظير ، على ضرورة تحملنا أعباء هذه العملية . .

مازلت أتذكر حتى الآن تلك الليلة التى اجتمعنا فيها فى بيت مدحت جمعة فى المأمون . . وكان هناك أياد سعيد ثابت ، وخالد الدليمى وكريم محمود ومدحت جمعة ، وعبد الله الركابى وطالب شبيب .

وبعدها بيومين أو ثلاثة تطوع للقيام باغتيال قاسم الشهيد فاضل الشقرة . . الذى حكمت عليه محكمة المهدواى فيما بعد بالإعدام لاشتراكه فى ثورة الموصل .

ووضعنا خطة لتنفيذ ذلك . .

كان يحمل تلك الخطة إلقاء حقيبة مليئة بالقنابل والمتفجرات على عبد الكريم قاسم فى نهاية شارع الرشيد ، حيث يستدير نحو ساحة التحرير ، على أن يتم إلقاء هذه الحقيبة من شقة فى الطابق الأول من بناية تقع فى نقطة الاستدارة عند نهاية الشارع . .

ولكننى عند ما عدت لأعرض الخطة على الضابط الشاب، لبحثها من الناحية الهندسية العسكرية . . بدا بعد دراستها ، أن الخطة غير مضمونة النجاح ولا بد من التفكير فى خطة أخرى . . بيد أن الأحداث لم تمهلنا . . إذا نعدلت ثورة الموصل . . واضطر الشهيد الشقرة للسفر إلى الموصل للمشاركة فيها .

وبعد فشل ثورة الموصل .. وتحت إلحاح وضغط الظروف التي كانت تقسو يوما بعد يوم .. بدا لنا أن وضع الخطة الناجحة، أساس هام فى العملية .

وبالفعل بدأنا بتوزيع المهمات والمسئوليات .. فتولى أياد سعيد ثابت وخالد الدليمى مهمة الاتصال بأعضاء الحزب الذين نتوقع استجابتهم واستعدادهم للعمل لانتقاء الصالحين لعملية الاغتيال .. وقد علمنا ، أن كل عضو ، جرى الاتصال به ، قد عبّر عن استعداده للإسهام فى العملية ، وكان هناك إجماع بأن هذا الحل هو الحل الأوحد الذى لا حل غيره .

تولى عبد الله الركابى الاتصال بالفئات القومية .. اتصل بحركة القوميين العرب . وعند عرض الأمر عليهم . . أبدى له المسئولون فى هذه الحركة عن استعدادهم التام للمشاركة فى العملية بمختلف مستويات المشاركة .. من تزويد بالسلاح .. أو تقديم المتطوعين لتنفيذ الخطة . وعينوا شخصا يدعى (جاسم) ليكون عضو الارتباط فى موضوع الإعداد لهذه العملية .. كما رشحوا عضوين من أعضائهم للمشاركة فى تنفيذها ..

أما أنا فقد أنيط بى وضع الخطة العملية بتفصيلاتها .. وشكلت على أثر ذلك لجنة من أعضاء القيادة هم :

أياد سعيد ثابت. خالد الدليمى .عبد الله الركابى .وفؤاد الركابى.

كانت مهمة هـــذه اللجنة متابعة الخطة خطوة . . ومناقشتها بعد أن طرحها عليها .

وقد كلفت فى ذلك الوقت بالاتصال بمحمد صديق شنشل باعتباره ممثل حزب الاستقلال فى الجبهة القومية ، لمفاتحته وإعلامه الأمر ، أسوة بالفئات القومية الأخرى .

كانت مهمة الاتصال به . . : حينذاك شاقة وعسيرة . .

كان العملاء وأجراء قاسم ينتشرون فى كل مكان من بغداد . . فى الأزقة والشوارع وفى زوايا الطرقات وعلى نواصيها . . يعيثون ويعبثون وينشرون الفزع والهلع . .

وكان عبد الكريم قاسم . . قد أصدر أمراً بإلقاء القبض علىّ منذ الساعات الأولى لقيام ثورة الموصل . . وفعلا ذهبت ثلة من الجيش ورجال أمن قاسم إلى بيتى فى بغداد الجديدة ، لإلقاء القبض علىّ بعد ساعات من قيام ثورة الموصل . ولكنهم لم يجدونى هناك — بالطبع — فكنت قد غادرت بيتى قبل إعلان ثورة الموصل إلى راغبة خاتون بالأعظمية . . ولكنهم وجدوا هناك المذيع العراقى ناظم جواد شقيق حازم جواد . . الذى كان قد جاءنى إلى البيت ليلقانى ويعرض علىّ أن أحد الضباط الشباب ممن وكل إليهم أمر حراسة عبد السلام محمد عارف قد أبدى استعداده لتنفيذ أية خطة تعد لتهريب عارف . .

فى ذلك الوقت بوغت ناظم جواد بقوات الجيش والأمن . .

ولما لم تجدنى . . آثرت ألا تخرج من البيت إلا بغنيمة . . فكان الضحية هو ناظم جواد !

وعلى أية حال . . فان أمر إتصالى بمحمد صديق شنشل كان يبدو مهمة شاقة وعسيرة . .

وفى إحدى الليالى . . .

كانت بغداد تتعرض لهاطل غزير من المطر ، خرجت ومعى مدحت إبراهيم جمعة فى سيارة صغيرة من نوع (فولكس فاجن) يقودها عبد الله الركابى . . وتوجهت إلى بيت محمد صديق شنشل الذى لم يكن يبعد كثيراً عن الدار التى كنت مختبئا فيها . وسلكت الشارع الفرعى المؤدى إلى بيت شنشل . . وقد تخلصنا فعلا من رقابة المقاومة الشعبية التى أطلقها عبد الكريم قاسم فى الشوارع ، قبل بدء حظر التجول الذى كان مفروضا منذ الساعات الأولى من المساء فى ذلك الوقت . .

وصلت إلى بيت شنشل ليلا قبل موعد حظر التجول . .

غادرت السيارة على أن يعود إلىّ مدحت وعبد الله بعد فترة قصيرة من الوقت . .

طرقت الباب ففتح لى أحد إخوة شنشل . . وما كاد يلقى نظره على حتى أصابه شبه ذهول . . على أنى لم أتريث . . بل فرضت نفسى كضيف ثقيل ودخلت !

جلست إلى شنشل ودخلت معه ، بشكل فورى سريع ، فى الموضوع .

أبلغته بأننا وجميع القوى والفئات القومية ، قد بدأت تحس بأنه لا مناص من إزالة عبد الكريم قاسم باعتباره ركيزة للقوى الشيوعية والشعوبية والعمالة فى العراق . .

٢

ما كدت أطلع محمد صديق شنشل على تفاصيل الموقف ، حتى انفرجت أساريره وصمت قليلا ، وهو ينفث دخان سيجارته ، ثم التفت إلىّ وأبدى موافقته على ذلك وأعرب عن رأيه بأن « ضرب » عبد الكريم قاسم حل أساسى وهام ، وأعلن عن حماسه للمشروع ، بأن وعد بتقديم مبلغ من المال ، للاسهام فى تغطية جزء من تكاليف العملية . .

وصادف أن كان فى زيارة شنشل حينذاك عبد الستار على الحسين (وزير الإسكان الحالى) وقد اطلع على جانب من الموضوع وقد أبدى تأييده . .

وودعت شنشل وخرجت . .

فى تلك الليلة أويت إلى فراشى ، بعد أن استمعت إلى عدد من الإذاعات . . حاولت أن أقرأ فلم أستطع . . كان الذهن مزدحما ، والصور تنثال على سريعة عنيفة الخطى .

فالى الظلام . .

وأطفأت المصباح ، واستغرقت فى نوم عميق حتى الصباح . .

وهكذا أصبح كل شيء أمامنا واضحا جلياً .

قواعد الحزب وقياداته . . الفئات القومية . . والعناصر الطيبة الجميع ينادون بضرورة « ضرب » عبد الكريم قاسم وإزاحته ، بل هم يطالبون بالإسهام فى أية عملية من هذا النوع . .

و ... الرغبة الشعبية الملحة تضغط ، وتضغط إلى حد الانفجار قلقة ، ملتاعة نفد صبرها . .

إذن ، الجميع يتوقون للخلاص من قاسم ! هذا ما استطعنا أن نخلص إليه من محاولات استشفاف الرأى ، التى كانت بمثابة « عملية استفتاء » سرية مكتومة ، بين صفوف القوى والعناصر القومية .

وهكذا بدأنا الخطوة الأولى . .

ناقشنا الأمر ملياً . . درسنا الظروف الصعبة . . درسنا احتمالات النجاح ، واحتمالات الإخفاق .

إنتهينا إلى أن القيام بهذه العملية الضخمة الجسيمة ، ينبغى ألا توكل إلى فرد أو بضعة أفراد . . إن جسامة المهمة تتطلب عدداً غير قليل يتمتع بكفاءات عالية ومن نوع خاص . . وتقتضى استعداداً أكبر للتضحية والمغامرة ، كما تتطلب ظروفا معينة ، يمكن من خلالها تأدية المهمة بنجاح .

فقد أحاط عبد الكريم قاسم نفسه بحراسة وقائية مشددة ....

كان قد ضرب نطاقا من قوى الحراسة حول مبنى وزارة الدفاع ،

إلى درجة يتعذر معها الدخول إليه ، وضربه فى مقره ، سيما وأن جميع من يمكن اعتمادنا عليهم فى هذه العملية غير مهيئين لدخول وزارة الدفاع . .

الحراسة شديدة ومركزة . . وعبد الكريم قاسم لا يذهب إلى داره إلا بعد انبلاج الصبح . . بعد أن يتثبت من عدم إمكانية أى تحرك ضده للإطاحة به .

كان يذهب فى الساعات الأولى من الصباح إلى بيته فى العلوية بجوار المقر الرئيسى لحلف بغداد سابقا ، وتحت حراسة مشددة فى البيت أيضاً ، لينام فيه حتى حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر ، ليعود بعد ذلك لوزارة الدفاع ليبدأ يوما جديداً حتى فجر اليوم التالى .

كان إذ يغادر بيته عائداً إلى مقره فى وزارة الدفاع ، يسلك طرقا وشوارع مختلفة . . كان يوما يسلك هذا الطريق وذاك الشارع . وفى اليوم التالى يسلك غيره ، يمينا أو شمالا . .

كان يقوم بجولات فى الشوارع والأحياء أثناء ساعات عمله . دون أن يطلع أحداً على وجهة سيره أو موعد عودته . .

كانت الأكف الشعوبية والشيوعية والعميلة التى ترتفع بالتصفيق له . . والحناجر التى ترتفع بالهتاف له ، تزيده عنتاً على عنت ، فى محاولات سحق القوى القومية وتبديدها .

كان الحرس يحيط به من كل صوب .. فى سيارته العسكرية الخاصة . . ووراءه سيارة أو سيارتان محملتان بالجنود بأيديهم المدافع الرشاشة السريعة الطلقات . .

فما العمل . . فى مثل هذا الحال ؟ لقد بدا . . أنه لا مناص من الإعداد لهجوم مسلح تقوم به جماعة من الفدائيين المدربين . .

وكان لا بد من متابعة حركته متابعة دقيقة ، ما بين وزارة الدفاع وبيته . وقد وكلت هذه المهمة إلى عدد من الأعضاء لمتابعة تحركه ، وذلك لانتقاء المكان الملائم لضربه ومعرفة الشوارع والطرق التى يسلكها عبد الكريم قاسم ، وتحديد نقاط المراقبة حتى يصل إلى مكان الجماعة التى وكل إليها أمر التنفيذ .

وبعد أيام من الدراسة الدقيقة . . واستعراض مختلف الخطط وتمحيصها وإدخال التعديلات عليها ، تم التوصل إلى تعيين الأسماء وتحديد المكان . . وتثبيت نقاط المراقبة ، ووضع المخطط الضرورى والشروع بالتنفيذ . .

لقد تقرر أن يقوم أحد الأعضاء بقيادة سيارة تقطع على عبد الكريم قاسم الطريق ، وتوقف سيارته فى عرض الطريق . .

وتقرر بعد ذلك أن يتولى إطلاق النار ثمانية أشخاص ، اثنان منهم يتوليان التصويب على السائق والمرافق (الياور) الذى يجلس إلى يمين السائق ، وإثنان آخران يطلقان النار على قاسم نفسه ،

والأربعة الآخرون يصوبون النار إلى سيارة (الجيب) العسكرية التي يركبها الحرس .

وتقرر أيضاً أن يعين اثنان آخران ، لحماية المنفذين وحراستهم وتأمين انسحابهم بعد إتمام العملية . .

وتقرر كذلك ، أن يستخدم الجميع المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية . .

ووضعت خطة لتأمين تدريبهم ، رغم الرقابة الشديدة التي كانت تفرضها المقاومة الشعبية على جميع الشوارع والطرق والمسالك الرئيسية والثانوية . كما تم تعيين نقاط الرقابة . .

واحدة فى ميدان التحرير فى الباب الشرقى .

والأخرى على مقربة من الباب الشرقى عند سينما روكسى .

ونقطة رقابة ثالثة فى ساحة الأمين .

ونقطة رقابة رابعة أمام وزارة الدفاع .

ونقطة رقابة خامسة فى باب المعظم . .

ولقد تم تعيين المكان الضرورى ، فى كل نقطة ، ليتم الاتصال التليفونى ، بين أية نقطة رقابة وبين جماعة التنفيذ .

وتحددت إحدى النقاط فى (رأس القرية) على شارع الرشيد موقعا لتنفيذ العملية .

وتم استئجار شقة هناك تلتق فيها جماعة التنفيذ، حتى إذا ما جاءتها الإشارة بأن قاسم سيمر من موقع التنفيذ بعد دقائق.. تمكنوا من النزول إلى شارع الرشيد وتنفيذ العملية بضربة خاطفة..

كما تحددت نقطة لاستلام الإشارة التليفونية من نقاط المراقبة لإبلاغها لجماعة التنفيذ..

وتقرر تعيين أياد سعيد ثابت وخالد الدليمى مسئولين عن متابعة تنفيذ الخطة الموضوعة وتنفيذ قرارات القيادة الخاصة بها وتوزيع المهمات..

ولم تكد تمر بضعة أيام حتى تم انتخاب العدد الضرورى.. وكان من بين المنفذين الذين تطوعوا وتمت الموافقة على تطوعهم: الشهيد عبد الوهاب العزيزى، صدام التكريتى، حاتم العزاوى، عبد الكريم الشيخلى، أحمد طه العزوز، سليم الزيبق، سمير النجم، يس السامرائى وآخرون غيرهم.

أما أعمال التدريب، وتحديد الأماكن الضرورية له، فقد كلف بها أياد سعيد ثابت وهلال ناجى بالإضافة إلى تكليف آخرين بشراء الأسلحة اللازمة ونقلها وإخفائها.

• • •

لقد بدأنا بالاستعداد لتهيئة ما هو ضرورى لإنجاز العملية . .

ه كان علينا أن نؤمن شراء المدافع الرشاشة اللازمة لثمانية أشخاص . والقنابل اليدوية . . إذ لم يكن لدينا سوى عدد ضئيل ، لا يكفى للقيام بهذه المهمة .

ه كان علينا أن نؤمن مكانا لتدريب الفدائيين وتأمين نقلهم إلى مكان التدريب .

ه كان علينا أن نهيء مكانا لاختفاء جماعة التنفيذ ونقطة الإشارة فى موقع عملية التنفيذ .

ه كان علينا بعد ذلك تعيين أماكن ملائمة للمراقبة تتوافر فيها أجهزة التليفون ، يستطيع أن يجلس فيها المراقب لساعات طويلة دون أن تكشف مهمته .

ه ه ه

أما بشأن تأمين الأسلحة . . فلقد كانت الرقابة شديدة ، تكاد تشل أى تحرك . . كانت كل حركة تحصى وكل همسة تسمع . .

كان جو الإرهاب يسود العراق من أقصاه إلى أقصاه . . فلم يكن من اليسير فى مثل هذا الجو تأمين شراء أسلحة كالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية .. كانت عملية شراء الأسلحة فى ذلك الوقت عملية غير مأمونة العواقب . . كانت نسبة اكتشافها عالية جداً . .

كانت المدافع الرشاشة الملائمة يجب أن تكون صغيرة الحجم ، ليسهل حملها وإخفاؤها ،عند النزول فى نقطة التنفيذ فى شارع الرشيد، ولو لمدة ثوان معدودات لانتظار عبد الكريم قاسم .

وفكرنا فى الحصول على السلاح من الإقليم السورى ، فسافر يس السامرائى بالفعل ، لشراء نوع صغير من المدافع الرشاشة التشكوسلوفاكية من طراز (ساموبال) ، ولكنه فشل فى الحصول عليها ، لأنها لم تكن معروضة للبيع ، ولا تستخدم إلا من قبل القوات العسكرية . . وأن استخدامها قد يجر إلى مضاعفات ، إذا ما قدر للعملية أن تفشل . .

وبعد أن يئسنا ، وبدا أن إمكانية الحصول على هذا النوع من الأسلحة عسير جداً ، قررنا شراء الأسلحة من بعض مهربى الأسلحة ، ومن بعض الفئات القومية والحليفة والأصدقاء . .

وبالفعل تجمعت لدينا مجموعة طريفة من المدافع الرشاشة ، منها الكبير الحجم الذى اضطررنا إلى قطع أخمصه ، ومنها القديم البالى الذى قد لا يمكن الاعتماد عليه . .

أما القنابل اليدوية ، فقد أخفقنا فى الحصول على عدد منها ، حتى قبل موعد التنفيذ بيوم واحد ، إذ جلب لنا عبدالغنى اليوزبكى عدداً منها من الموصل .

أما مشكلة التدريب ووسيلة الانتقال إلى مكانه ، فكانت مشكلة عسيرة هى الأخرى أيضاً . فقد كان أكثر المتطوعين غير قادرين على الرماية الجيدة . . كانوا جميعاً مستعدين للموت والفداء .. أثبتوا بطولتهم وبسالتهم قبل البدء بتنفيذ هذه العملية وبعدها ، ولكن معظمهم كان يحتاج إلى تدريب على الرماية . .

واخترنا مكاناً بعيداً ، عن بغداد ، هو منطقة « الحصوة » المجاورة لمدينة المسيب » ، وقد اتفق إياد سعيد ثابت وهلال ناجى على إعداد موقع التدريب ، فى مكان ناء ، داخل الصحراء ، الممتدة وراء المسيب ، وبالفعل نجح هلال ناجى فى المهمة التى وكلت إليه ، بالتعاون مع عدد من العناصر القومية المخلصة ، من أبناء المسيب ، وبعض أقربائه . .

كانت الخطة تعتمد على جماعة التنفيذ من الشباب الفدائيين ، كان هؤلاء الشباب يركبون سيارة صغيرة خاصة من نوع (فولكس واجن) ، ويحمل كل واحد منهم هوية شخصية مزورة ، باسم مستعار . ثم يسيرون فى الشوارع والطرق الخارجية ، بين صفوف أفراد المقاومة الشعبية ، المنبثة فى كل مكان . .

وكلما اقتربوا من منطقة من نقاط التفتيش ، علت هتافاتهم بحياة عبد الكريم قاسم ! . . يهتفون بأعلى أصواتهم « ماكو زعيم إلا كريم !! . . »

كانت هذه الهتافات جواز المرور الذى يسهل لهم المضى فى الطريق دون تعويق . . وأحياناً دون تفتيش !

أما نقطة التنفيذ ، فقد اتفقنا على اختيارها فى رأس القرية ، على شارع الرشيد ، لأن هذه النقطة هى أضيق النقاط فى شارع الرشيد، ومن أشد مناطق شارع الرشيد ازدحاما ، وفيها تسهل عرقلة ركب عبد الكريم قاسم ، ويسهل أيضاً الاختفاء بها والهروب منها، داخل الأزقة الضيقة المتفرعة من الشارع . .

. . هنا فى هذه المنطقة ، وعلى بعد خطوات من الشارع الرئيسى (شارع الرشيد) استأجرنا شقة لاختفاء جماعة الفدائيين المنفذين .

ووجدنا أن أفضل نقطة لاستلام الإشارة عن حركة عبد الكريم قاسم ووجهته ، هى عيادة طبيب الأسنان الدكتور حازم البكرى ، التى تقع فى مقابل شقة الاختفاء على الرصيف الآخر من شارع الرشيد .

ولقد أرسلنا أحد رفاقنا ليخبر الدكتور البكرى ، بأن الحزب عازم على مراقبة أحد أوكار الشيوعيين فى هذه المنطقة ، وقد وقع الاختيار على هذه العيادة ، نظراً لتوفر جهاز التليفون فيها . . إذ أن هذه المراقبة تقتضى بعض الاتصالات التليفونية ، وانتظار الشخص الذى وكل إليه أمر المراقبة ، لفترة قد تطول عدة ساعات من النهار .

وبالفعل رحب الدكتور البكرى ، ودون أن يعلم عن المهمة الحقيقية شيئاً . . واتفق مع المراقب ، على أن يقضى الصباح فى العيادة ، متظاهراً بأنه عامل جاء لإعادة طلاء العيادة وترميمها . .

ولقد اتفق على أن تكون كلمة السر التى تنقل بإشارة تليفونية هى « شكرى » والتى تعنى أن عبد الكريم قاسم قد توجه من الباب الشرقى إلى وزارة الدفاع ، وكلمة السر « محمود » التى تعنى أن عبد الكريم قاسم قد توجه من باب المعظم إلى الباب الشرقى . .

وفى أوائل شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٩ ، أصبح كل شىء مهيئاً لضرب عبد الكريم قاسم . .

الخطة وضعت بكل تفصيلاتها . .

والشباب الفدائيون قد تم تدريبهم . .

أعدت دار لاختفاء الفدائيين . .

اتفق مع عدد من الأطباء الحزبيين والأصدقاء على القيام بمهمة تضميد الجرحى ومعالجتهم ، إذا اقتضى الأمر ذلك . وكان فى مقدمة المتطوعين لهذه المهمة ، الدكتور تحسين معلة .

أعدت سيارة خاصة لنقل الفدائيين تنتظرهم فى شارع الجمهورية الموازى لشارع الرشيد ، بعد تنفيذهم العملية . وقد تطوع للقيام بهذه المهمة عامل طيب هو على حسون . .

الخطة جميعها تمت .. بجميع تفصيلاتها . . كل شيء جاهز .. إننا بانتظار الضربة .. الضربة التي تنزل بعبد الكريم قاسم .. لقد أعددنا كل شيء . . .

ولكن . . قليلا من التريث ! . . ما هي نتائج العملية في حالتي الفشل والنجاح ؟

قليلا من التريث ! . . فقد نكون على خطأ ، وقد نكون على صواب !

٣

بعد قليل من التريث .. وبعـــد وقفة استغرقت وقتاً ، واستعرضت الواقع الذى كنا نعيشه فى العراق ، أدركنا جسامة المخاطر التى يمكن أن تنشأ عن خطة تستهدف اغتيال قاسم ..

إن « ضرب » قاسم ، كان جديراً يومذاك ، بأن يعصف بالعراق ويلقيه لقمة سائغة فى اشداق الشيوعيين ..

لقد كان من العبث ، إذن ، الإقدام على مثل هذه الخطة ، دون أن نسند أقدامنا على أرض تتيح لنا الصمود فى الميدان ، وتمكننا من تحريك القوى القومية من أجل الهدف الأكبر ..

الاغتيال من أجل الاغتيال ! ..

لا ! ..

ما كان لحركة ثورية أصيلة أن تنادى بمبدأ كهذا ، وإلا تحولت عن ثوريتها ، أو تحولت عنها ثوريتها وفقدت أسلوبها الأصيل ..

لقد رأينا ، يومئذ ، أن اغتيال عبد الكريم قاسم سيترك فراغاً .. وفراغاً مريعاً يمكن أن تملأه أية قوة قادرة على التحرك فى اللحظة المناسبة .

ولكى تملأه القوة القومية ، كان عليها أن تتخطى كثيراً من العوائق الشائكة التى كانت تشد حركتها ، وتشل كثيراً من فعاليتها ..

كان علينا أن تنفض عنا عوامل الإنهاك التى أرهقتها واستنفدت قواها منذ فشل ثورة الموصل .

لقد وقفنا يومئذ حيال مسئولية جسيمة . . : مسئولية مصيرية كبرى . . فمزيداً من هذه المسئولية . . ومزيداً من الالتزام . . ومزيداً من مواجهة الواقع بكل عبوسه وجهامته ! . .

وهكذا ، وفى ظل هذا الإحساس الجديد ، اجتمعت القيادة القطرية للحزب ، وكانت جراح الموصل الباسلة ما تزال تنز دما . . كانت آهات الألم قد خفتت ، ولكن أصداءها المحزنة كانت ماتزال تصرخ .. أصداء هاتفة من جوف الأمس القريب ! . .

اجتمعت القيادة العليا القطرية وقتذاك ، وبعد أن ناقشت الموقف بدا لها أن مجرد ضرب قاسم لا يمكن أن يكون حلا جذرياً وجدياً لمشكلة الوضع القائم فى العراق . .

فقررنا وقف عملية الاغتيال . .

وبعد أحداث الموصل الدامية المفجعة بنحو ثلاثة أشهر ، بدا واضحاً للقيادة . . من خلال سياق الأحداث السريعة المتلاحقة التى كانت صدمات عنيفة للذهن ، أن العدو الرئيسى الذى تواجهه القومية العربية فى العراق ليست الشيوعية وحدها ، وإنما الاستعمار والرجعية ، قبل ذلك ،وأن الشيوعيين لم يكونوا سوى الخنجر الذى استخدمه قاسم ، لطعن الحركة القومية وأهدافها ورغم ماللوشيوعية فى مخططات وأهداف معادية أيضاً . .

فى تلك الفترة ، أى بعد نحو ثلاثة أشهر من أحداث الموصل ، بدأت تدور شائعات مفادها أن عبد الكريم قاسم قد عزم على ضرب القوى الشيوعية . وقد رددت بعض الصحف الشيوعية هذه الشائعات ، تلميحاً أو تصريحاً .

وقد علم فى بعض الدوائر السياسية فى العراق أن قاسم قد أعطى وعداً بتوجيه ضربة للشيوعيين ، أو على الأقل ، وقفهم عند حدهم ، أن فرغ من توجيه الضربات القاصمة للحركة القومية .

وفعلا بدأت بوادر التغيير فى سياسة قاسم تبدو واضحة للعيان ، فقد منحت حكومة قاسم بعض الامتيازات الصحفية لعدد من مناهضى الشيوعية وخصومها ونظمت حملات واسعة ضد الشيوعيين وتعرض الحزب الشيوعى العراقى لهجمات كانت تدار ، فى كثير من الأحيان ، من قبل مخابرات قاسم وبعض أنصاره والمقربين إليه من الضباط ، وأطلق سراح عدد من المعتقلين من الضباط والمدنيين الذين احتجزوا بعد ثورة الموصل .

فى هذه الفترة ، عمد الحزب الشيوعى العراقى إلى القيام بحملة يستهدف من ورائها كشف الخطة المبيتة ضده ، فعمل على إقامة جبهة الاتحاد الوطنى لتكتيل القوى السياسيه لتهديد قاسم والضغط عليه .

ولكن سياسه إضعاف الشيوعيين كانت تسير بطريقها المرسوم لها، دون أن تعير أى التفات أو اكتراث إلى لهجة التهديد التى كانت النغمة الشائعة فى كتابات الشيوعيين يومذاك .

وإذ أحس الشيوعيون ، بجدية الضغط وعنفه عليهم ، بدأوا يفكرون بالقيام بانقلاب عسكرى على قاسم ، والقفز إلى السلطة عن طريق العنف .

وفعلا أقدموا على محاولة انقلابية ، فشلت منذ ساعاتها الأولى ، بعد أن اكتشفها قاسم . فكانت أفضل حجة بيده لإضعاف قواهم ، وبخاصة داخل صفوف الجيش ، وفى الوسط الشعبى أيضا ، فسرح بعض الضباط الشيوعيين وأحال البعض منهم على المعاش ، واعتقل آخرين . . فكسرت شوكتهم إلى حد كبير . .

فى هذه الفترة بذلت القوى القومية أوسع الجهود لاستثمار الخلاف الذى نشب بين قاسم والشيوعيين ، وشجعت الجبهة القومية تركيز الحملة على الشيوعيين فوقعت الاصطدامات التى كانت تتفاوت عنفاً هنا وهناك ، فى مختلف مدن العراق .

بذلت الجهود فى نفس الوقت لإعادة تنظيم صفوف القوى القومية ، وانتشالها من عوامل الوهدة والتمزق والشتات التى شاعت بين مختلف عناصرها ، بفعل الضربات القاصمة القاسية التى وجهت إليها طوال أشهر عديدة . .

كما نشهد فى تلك الفترة ، بعض المقاهى وقد ازدانت واجهاتها بأضواء « النيون » ، ورفعت عليها بعض الشعارات القومية ، وتجمع هنا وهناك بعض الطلبة والشباب وهم يغنون وينشدون

الأناشيد القومية ويهتفون كما لو كانوا فى عرس من الأعراس ، بعد ليل طويل من الألم والشجن والدموع .

لقد انحسرت قليلا موجة الإرهاب الشيوعى الدامى ، ولم يعودوا قادرين إلا على بعض المناوشات الطفيفة يفتعلونها فى بعض المناطق والمقاهى ومحلات التجمع الطلابى . .

ولم تكد الذكرى الأولى لثورة ١٤ تموز (١٩٥٩) تحل حتى بدا واضحاً أن القوى القومية من عسكرية ومدنية قد استعادت ، وإلى حد كبير ، تنظم صفوفها ، وخرجت من الأزمة لتواجه مسئولياتها من جديد .

لقد بدأت القوى القومية تحس بقدرتها على التحرك . . لقد استشعرت هذه القوى ، بعد خروجها من ركام الألم والدم ، أن بوسعها الشروع بعمل ثورى للإطاحة بحكم قاسم ، ذلك أن قواها بدأت تتزايد وتنتظم ، كما بدأت القوى الشيوعية تجنح للأفول والزوال ، بعد جميع تلك الجرائم التى لطخت أيديها بالدماء . .

أهذه هى الأرض الصلبة التى يصح أن تستند إليها فى الإقدام على العمل الثورى ؟

أهذا هو الوضع الكفيل بالتحرك من خلاله لإنقاذ العراق ؟

أهذا هو الظرف الذى يمكن أن نتفادى فيه المغبة الفاجعة التى يمكن أن تحل بالعراق ؟ . .

كانت هذه الأسئلة والتساؤلات ومثيلاتها على ألسنتنا يومذاك .
وفى أواخر شهر تموز (يوليو) اجتمعت القيادة القطرية من جديد .. وعاودت الاجتماع مرة ومرات ، ثم خرجت بقرار يقضى بضرورة الشروع فوراً بوضع خطة ثورية الإطاحة بحكم قاسم .

خطة يشارك فيها الجيش والشعب .

ولقد تقرر أيضاً التشاور مع بعض رفاقنا فى العمل والنضال ، خارج العراق ، لا سيما البقية الباقية من أعضاء القيادة القومية ، وذلك لعدم وجود قيادة قومية شرعية حزبية آنذاك ، نتيجة لعدد من الأسباب ، فى مقدمتها حل الحزب فى سوريا بعد قيام الوحدة ، وإعلان الغالبية الساحقة من أعضاء تلك القيادة إنهاء عضويتهم فيها .. حتى ليمكننا القول بأنه لم تكن فى ذلك الحين أية قيادة قومية قادرة على الاجتماع واتخاذ القرارات .

ولقد انتهينا إلى قرار يقضى بالإفادة من عملية الاغتيال التى سبق أن أعددنا خطتها كاملة بعد ثورة الموصل . وتنفيذها الآن ، لتكون جزءاً من خطة ثورة شاملة تعد للاطاحة بحكم قاسم ، بحيث يمكن اعتبار خطة الاغتيال خطوة فى سبيل تحرك الضباط الأحرار للاستيلاء على السلطة وتصفية حكم قاسم نهائيا .

ولقد روعيت فى هذه الخطة جميع المصاعب والمتاعب التى قد

يتعرض لها الضباط الأحرار ، خلال تحركهم فوضعت خطوة تفصيلية أخرى فى الطريق ، مفادها أنه لا بأس من الإفادة من ، رئيس مجلس السيادة الفريق محمد نجيب الربيعى ومجلس السيادة نفسه ، لاستثمار الصفة الدستورية التى يتمتع بها هذا المجلس ، بغية تأمين سيطرة الضباط الأحرار وتصفية الحكم القاسمى

وبالفعل كلف عبد الله الركابى بالاتصال بالفريق صالح مهدى عماش (وزير الدفاع الحالى) فشرح له جانبا من الخطة الثورية ، واستطلعه الرأى عن مدى استعداد الضباط الأحرار للقيام بعملية السيطرة على الحكم ، فى حالة إقدامنا على قتل عبد الكريم قاسم .

ولقد طلب صالح عماش إمهاله بضعة أيام لكى يستطيع خلالها الاتصال بالضباط الأحرار ، والتعرف على مدى استعدادهم وإمكانياتهم للتحرك ضمن هذه الخطة الثورية .

وجرى بعد بضعة أيام إتصال آخر بين عماش وعبد الله الركابى ، نقل فيه صالح عماش رأى الضباط الأحرار فى الخطة ، ومفاد هذا الرأى ، أن حركة الضباط الأحرار مستعدة للقيام بعملية السيطرة على الحكم ، ومنع الشيوعيين من التحرك للقفز إلى السلطة ، فى حالة مقتل قاسم ..

وفى ضوء ذلك ، تقرر الاتصال بالفريق الربيعى لاستطلاع رأيه فى خطة كهذه ، فاتصلنا بشكرى صالح زكى (وزير التجارة

الحالى) ودعوته إلى بيتى الذى كنت مختبئا فيه آنذاك والذى كان كثيراً ما يتردد علىّ فيه ، لبحث بعض القضايا التى تهم العمل فى الجبهة القومية ، إذكان من أبرز عناصرها الفعالة . .

وزارنى شكرى ، وبحثت معه الأمر ، وتكفل أن يتصل هو بدوره بالفريق الربيعى ويطلعه على هذا الجانب من الخطة .

ثم عاد بعد بضعة أيام . . عاد يغمره الابتهاج . . وجلس وقد ارتسم على ملامحه أكثر من تعبير . . عاد لينهى إلىّ بأن الفريق الربيعى متحمس لإنهاء حكم قاسم ، وقد أبدى استعداده لارتداء الزى العسكرى ، والذهاب إلى مقر وزارة الدفاع فور اغتيال ، قاسم لبذل أى عون للضباط الأحرار فى السيطرة وامتلاك ناصية الوضع إلا أن الفريق الربيعى قد اشترط ، لقاء ذلك ، عدم الاندفاع الفورى فى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، بل رأى تشكيل مجلس للثورة مع الضباط القوميين الأحرار ، وتأليف حكومة قومية تتعاون إلى أقصى حد مع الجمهورية العربية المتحدة .

وفى اليوم التالى ذهب عبد الله الركابى ليلتقى بالفريق صالح مهدى عماش ، ويبلغه اتفاقنا النهائى مع الفريق الربيعى وتفصيلات هذا الاتفاق .

وبعد أيام أيضا كان لقاء بين الفريق عماش وعبد الله الركابى ، أبلغ فيه الركابى بأن الضباط الأحرار يتدفقون حماساً هم أيضا

للمساهمة فى هذه الخطة الثورية ، وأكدوا قدرتهم على السيطرة الكاملة ، بعد مقتل عبد الكريم قاسم .

ها هنا بدأنا نضع الأساس للخطة الثورية ، بخطوطها الأولى ، للإطاحة بالطاغية وحكمه المعادى لآمال الشعب القومية . . ها هنا أحسسنا بأننا قد أصبحنا على مدى قصير من الضربة الحاسمة . . ها هنا استشعرنا بأن دموع الألم التى أحرقت عيون الملايين من شعبنا ستمسح عما قريب !

إننا اليوم أمام وضع هذه الخطة الثورية بكل تفصيلاتها : بعد أن رفضنا مبدأ « الاغتيال من أجل الاغتيال » !

فذلك هو الأسلوب الثورى الذى ارتضيناه ! فلنشرع فوراً ، وإلا فان الزمن يروح علينا ، قبل أن نروح عليه ! . .

٤

مرة أخرى ، بدأنا استطلاع رأى الفئات القومية الأخرى ، واستشفاف رأيها . . بدأنا عملية « الاستفتاء القومى » من جديد ، لكى تتثبت من رأى هذه الفئات ، من العملية الثورية ، للإطاحة بحكم قاسم . .

كانت هذه الاتصالات ، تجرى فى أجواء سرية مكتومة . . وكانت الأجوبة تتتالى من كل مكان ، وجميعها تعقد الإجماع ، على صلاح العملية . .

كان الإجماع يتكاثف يوما ، بعد يوم ، بأن العملية عملية ثورية ، وأن جماهير الشعب القومية ، ستسندها ، وتقف إلى جانبها .

أما محمد صديق شنشل : فكان فى هذه المرة ، قد أبدى موافقته على العمل ، مع الإيصاء بشيء من التروى والأناة ، رغبة فى مزيد من ضمان إنجاح الخطة .

وفى أوائل شهر أيلول (أكتوبر) ١٩٥٩ ، شرعنا فعلا بوضع التصميم العملى لتنفيذ الخطة . .

٥ كانت العملية الثورية ، تبدأ فى مرحلتها الأولى ، بوضع خطة

لاغتيال عبد الكريم قاسم . فأعدنا النظر ، فى تلك الخطة التى سبق أن أعددناها ، وأجرينا فيها مجرد تغييرات بسيطة ثانوية . وكلف إياد سعيد ثابت وخالد الدليمى بالإشراف على تنفيذها . وتطوع للمعاونة فيها مدحت إبراهيم جمعة . .

• الشروع فوراً بتشكيل منظمات الفدائيين ، على غرار الحرس القومى ، لتقوم بالإسهام الشعبي المسلح ، إذا ما دعت الضرورة لذلك . وتألفت قيادة خاصة لتأليف هذه المنظمات ، أنيطت رئاستها بعبد الله الركابى .

• توطيد الصلة الدائمة بمنظمات الضباط الأحرار ، بحيث نضمن تحركهم فى اللحظة المناسبة ، للاستيلاء على وزارة الدفاع وتأليف حكومة قومية ومجلس ثورة قومى. وقد كلف عبدالله الركابى بتوثيق الصلة المستمرة مع صالح مهدى عماش ، لتأمين ذلك .

• توطيد الصلة الدائمة بنجيب الربيعى ، بحيث يضمن تحركه فى اللحظة الفاصلة ، ليؤدى الدور الضرورى فى الخطة ، إذا ما دعت الضرورة لذلك . . وقد كلف شكرى صالح زكى بذلك . .

° ° °

لم يعد هناك ، سوى الشروع فعلا بالعمل . . وبدأنا فعلا . . بدأنا للإعداد لكل شيء . . لكل مرحلة من مراحل الخطة الثورية . . كانت هناك تحركات تجرى وراء أستار كثيفة من الكتمان . .

استدعى المتطوعون للتجمع فى الأماكن المحددة لهم ضمن الخطة . .

جلبت الأسلحة للمعركة الفاصلة المنتظرة ، بعد أن خزنت وقتاً طويلا ، وصدئت ، إثر تعطيل عملية الاغتيال السابقة . . .

حددت نقاط الرقابة . . .

كان كل شيء يتم بدقة وضبط وإحكام . وكنا كلما أنجزنا مهمة من المهمات ، ازددنا ثقة واطمئناناً وتأكداً من النصر ، بل كنا نحس أننا قد خطونا خطوة نحو النصر . .

لم نكن نعانى شيئاً من المصاعب قط . . إن ما كنا نعانيه ، هو نط قواعد الحزب والفئات القومية الأخرى ، للتعجيل بتوقيت ساعة الصفر !

لقد تجمعت لدينا المعلومات الدقيقة عن كل حركة من حركات قاسم . لقد علمنا بأن عبد الكريم قاسم بدأ يذهب إلى بيته حوالى الساعة السابعة صباحاً ، لينام حتى حوالى الساعة الواحدة ، بعد أن يتأكد تماماً من أنه ليس هناك أى ظل من احتمال لأى تحرك من الجيش ضده . ثم يغادر بيته ، بعد ذلك ، إلى وزارة الدفاع لأداء مهامه ومقابلاته . . ويقوم قبيل غروب الشمس أو بعيدها بجولة فى منطقة من مناطق بغداد يعود بعدها إلى وزارة الدفاع ، ليقوم بمهام ومقابلات أخرى ، أو يجتمع بمجلس الوزراء الذى كان ينعقد.

فى كل ليلة ، فى وزارة الدفاع ، ويختم جلسته بعد منتصف الليل ، ينصرف بعدها قاسم إلى أعوانه المقربين، ثم كثيراً ما كان يقوم ببعض الجولات فى أنحاء بغداد ، قبيل الفجر . .

هذا ما علمناه ، على نحو أكيد . . ولكن هناك شيئاً أهم من ذلك بكثير . . الأهم أن عبد الكريم قاسم بدأ يشعر بشىء من الاطمئنان . .

لقد بدا عبد الكريم قاسم يغرق فى لجة من الأوهام . . لقد خيل إليه أنه قد خدع كافة القوى من قومية وشيوعية على السواء .

لقد ظن أن « وحدانيته » — فى وزارة الدفاع — قد توطدت ورسخت إلى الأبد ! . .

لقد حسب أن كل شىء قد بدأ يجنح للاستقرار وهكذا بدأ يقلل من حراسته ، وأصبح فى كثير من الأحيان، ينتقل بسيارته العسكرية الخاصة ، لا يرافقه فيها سوى السائق وأحد الحراس من الضباط المرافقين .

وإذن فليغرق حتى هامته ، فى لجة الوهم والاعتداد !.. وليضرب بقدميه الأرض ، وليقل ما يقول من رسوخ الأرض من تحته ! فإن مهماتنا تنجز فى كل يوم ، وغدا الهجوم المسلح عليه أمراً يبلغ اليقين من نجاحه .

° ° °

وفى ليلة من الليالى الحالكة النكراء، التى لا ولن تفارق ذكراها الشجية أذهان أبناء هذا الجيل ، والأجيال القادمة . .

فى ليلة مدلهمة الذكرى . . أعلن عبد الكريم قاسم من وسط لجة الوهم التى غرق فيها ، قراره بإعدام الضباط الأحرار : ناظم الطبقجلى ، ورفعت الحاج سرى ورفاقهما ، وفاضل الشقرة ، فجر يوم ١٩٥٩/٩/٢٠ .

وما إن أعلن عبد الكريم قاسم قراره الأسود الدامى هذا ، حتى ساد الوجوم ، فى كل مكان . . عم الذهول وشاع الصمت العميق ، وبدأت عوامل الثأر تعتمل فى كل نفس ! . .

وفى ليلة تنفيذ حكم الإعدام فى هذا الرعيل من الأحرار ، جرت محاولات للحيلولة دون تنفيذ الحكم . وشارك فى هذه المحاولات عدد من الوزراء ومجلس السيادة ، وبعد حديث طويل مع عبد الكريم قاسم خيل للقائمين بهذه المحاولات ، أن عبد الكريم قاسم قد أقلع عن فكرة إعدامهم .

وعند فجر ذلك اليوم ، سارت قافلة الأحرار ، فى شوارع بغداد تطوقها ، من كل صوب المصفحات المليئة بالجنود المسلحين .

واخترقت قافلة الاستشهاد مدينة بغداد ، بينما كانت بغداد ، تنام قلقة ، تتراءى لها أشباح مفزعة دامية ، وكوابيس من الألم الرازح !

فى تلك الليلة ، لم أستطع النوم .. قلق ، وألم يحز فى الأعماق .. لقد انثالت أمامى الذكريات ، واضحة جلية كطريق المصير ! . .

لقد أطلت على صورة رفعت الحاج سرى ، بوجهه العذب ، وملامحه الهادئة ، وبصبره وإيمانه العميق بحتمية انتصار الأمة العربية .

وأمامى ، من خلال زحمة الذكريات والصور ، وجه آخر مشرق . . هذا هو ناظم الطبقجلى ، وتذكرت أيامى معه ولقاءاتى له فى كركوك والسليمانية وأربيل فى الأيام الأولى لثورة ١٤ تموز ، عندما كان عبد السلام محمد عارف يقوم بجولاته هناك .. تذكرت طيبة هذا الرجل ، ومتانة خلقه ، وتذكرت إيمانه العميق — دون افتعال — بمصير أمته . .

وهناك ، فى دوامة هذه الصور التى تزحم الذهن ، يطل وجه حبيب إلى القلب . . هو وجه الرفيق العزيز فاضل الشقرة ، ذلك الشاب الملتهب إيمانا بالوحدة والحرية والاشتراكية . .

كانت ليلة حالكة فى سواد ذكرياتها . . وما إن أطل صباحها ، حتى سمعت طرقا على الباب . . جاءنى عبد الله الركابى ، ومدحت إبراهيم جمعة ، وملامحهما تنبىء بألم ممض عميق . . كان الألم قد أحال وجهيهما ، وجعل منهما شخصين لا أكاد أتعرف عليهما . . فلقد شهدا فجر ذلك اليوم . . شهدا بعينيهما ، مصرع الأحرار ، برصاص الجريمة والغدر . .

إذن فقد صرع الأحرار .. إن كل جرح من جروح الشهيد
فم يصرخ بالثأر !
ولقد سمع الجميع صرخات الثأر ، من أغوار تلك الجراح !

° ° °

وما كاد النهار ينتصف ، حتى سادت شوارع بغداد مظاهرات
صاخبة ، لا سيما فى الأعظمية والكرخ ، تستنكر عملية الغدر اللئيم.
كان البيت الذى أسكن فيه فى نفس الشارع الذى تسكن فيه
أسرة الشهيد ناظم الطبقجلى ، وعلى مقربة أيضا من بيت أسرة
الشهيد رفعت الحاج سرى ..
ولقد أطللت من وراء زجاج النافذة ، فرأيت طوفانا من
الشباب والأطفال والنسوة والشيوخ ، تجتاح الشوارع ، وهى
تهتف « يا بغداد .. ثورى ... ثورى ... خلى قاسم يلحق
نورى ! »
كانت روح التحدى الصريح لقاسم ولحكمه الغاشم العميل ،
قد تفجرت فى أرجاء العراق .. حتى الضباط والجنود الذين
أرسلهم الطاغية ، لتفريق المظاهرات الشعبية التى عمت أرجاء
بغداد ، ولمنعها من دخول شارع الرشيد .. حتى أولئك الضباط
والجنود قد دمعت عيونهم من منظر تلك المظاهرات التى ما كانت
سوى مواكب الحزن فى ذلك اليوم الدامى الحزين ..

وفى الأيام القلائل التى أعقبت « يوم الشهداء » هذا ، بدا واضحا لنا أن الغليان قد بلغ ذروته . . داخل صفوف الجيش ، وفى الأوساط الشعبية . لقد بدا واضحا أن النقمة قد بلغت أوجها الأقصى .

الجيش أحس بأن كرامته قد سلبت ، وأنه لا بد من الإنتقام من هذه الطغمة الغادرة اللئيمة .

والشعب لم يعد بوسعه أن يحتمل هذا الطغيان المسرف ، ولم يعد يحتمل أهوال هذا الحكم الدامى . .

إذن ، فقد شارفت اللحظة الحاسمة على الدنو . . وإذن ، فلا مناص من التعجيل واختزال الزمن ، لتوجيه الضربة النهائية لحكم الطغيان ، وهو فى أضعف حالاته ، تحيطه النقمة من كل صوب . .

كنا قد فرغنا من إعداد الخطة ، قبل تنفيذ حكم الإعدام بأيام قلائل ، وكنا قد شرعنا فعلا بالإعداد لتنفيذها . .

أما الآن ، فلا مناص من التعجيل . . لقد دنت اللحظة الحاسمة ، بل أطبقت . . ولا بد من خطة ثورية كاملة . .

فإلى الضربة الفاصلة !

٥

وخلال اجواء النقمة التى انفجرت إثر إعدام الشهداء ، بدأنا نحس بالضغط الشعبي المتزايد لإزاحة عبد الكريم قاسم وتصفية حكمه الدامي . . بدأنا نسمع أنين الجرح الذى خلفته تلك الطعنة الغادرة . . الطعنة التى وجهت للجميع .

ومن خلال صلاتنا بالقوى القومية ، من مدنية وعسكرية ، وبالجماهير الصديقة . . بدأنا نسمع بعض الهمسات تصلنا بين حين وحين . . أن هناك أكثر من فئة تعد خطة لاغتيال عبد الكريم قاسم ، والقبض على ناصية الحكم .

من بين هذه الخطط ، خطط مغامرة ، قد تدهور العراق إلى وهدة من الفوضى والدماء . . وقد تلقيه لقمــــة يسيرة سائغة فى أشداق الرجعية أو الشيوعية .

وبعد قليل تتالت المعلومات تؤكد لنا أن هناك فئة مرتبطة بالملك حسين وتموّل من قبله ، قد بدأت تعد لعملية اغتيال قاسم . . هذه العملية من شأنها أن تطفىء ثورة ١٤ تموز ، وتعيد العراق بشكل أكيد إلى القبضة الاستعمارية الرجعية من جديد .

إذن ، فقد كان هناك سباق صامت مكتوم ، بين مختلف القوى والعناصر للإطاحة بقاسم والسيطرة على الحكم ! . .

وكنا نتساءل فيما بين أنفسنا هل استحال العراق إلى مغنم مهجور فى عرض الطريق ، يتبارى الجميع للوصول إليه واختطافه ؟

ثم كنا نتساءل !

أين هى مسئوليتنا ونحن نشهد هذه المباريات الصامتة المكتومة التى ستمزق هذا الوطن الحبيب ، وتحيله بدداً فى أيدى المغامرين أو القوى العادية ؟ . .

كان واضحاً يومذاك أن حكم عبد الكريم قاسم يقترب من نهايته المحتومة ، وأن على الطليعة الثورية أن تعمل ، وإلا فإنها ستتخلى عن جميع مسئولياتها التى ألقتها عليها ظروف التاريخ .

وتتالت اجتماعات القيادة القطرية . . وتتالت الصلات مع الفئات والقوى القومية ، وتتالت المباحثات مع الضباط الأحرار . . وكانت النتيجة أنه لا مساغ لتأجيل أو تردد . . فإن ساعة الصفر قد حددت نفسها .

وبدأ الإعداد الفعلى . .

مئات الشباب من حزبيين وغير حزبيين يروحون ويغدون ، كل فى واجبه الذى أنيط به . . إن قوانا بدأت تزحف بصبر وأناة . . وبصمت أيضاً نحو الجبهة . . نحو معركة الحرية والمصير .

وفى مساء يوم ١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٩ ، عندما كان الظلام يطبق على بغداد ، بدأ أعضاء القيادة القطرية يتوافدون بحذر واحداً إثر آخر . . فى ذلك المساء عقدت القيادة القطرية اجتماعها الخطير . . فى ذلك الاجتماع واجهت القيادة القطرية نفسها بمسئوليتها الفعلية حيال العراق ، وما انحدرت إليه من أوضاع دامية سوداء .

ناقشت الموقف الراهن ، فى ضوء صلاتنا بالفئات والقوى القومية والضباط الأحرار . وبعد جلسة كانت فيها مواجهة صريحة للنفس ، ومواجهة صريحة للموقف ، بدا للقيادة :

ه إن عملية الإغتيال كمرحلة أولى من مراحل الخطة الثورية قد بلغت حداً من الاتقان ، أصبح معها الفشل ضعيف الاحتمال .

ه إن الضباط الأحرار ، ينتظرون على أحر من اللهب الذى اضرمه قاسم فى العراق تنفيذ عملية الاغتيال ، ليمسكوا بناصية الحكم .

ه إن الجماهير القومية ، مستعدة لخوض المعركة بعد أن وعت بأن هذه المعركة معركتها ، إن لم تخضها ببسالة ، فقد قضى عليها بتمزيق أهدافها وآمالها .

ه إن رئيس مجلس السيادة ، ينتظر تنفيذ عملية الاغتيال ، ليسهم فى المعاونة فى الخطة الثورية .

هذا ما انتهت إليه القيادة القطرية فى ذلك الاجتماع ، واستمرت

الجلسة حتى اقترب موعد منع التجول ، فانفض الأعضاء . . وكلهم ثقة ، ينفجرون حماسة وإصراراً . . وكلهم يتطلعون بلهفة إلى يوم السبت التالى ١٩٥٩/١٠/٣ ... ذلك اليوم سيكون يوماً فاصلا من أيام مصير المعركة فى العراق .

وأويت إلى فراشى فى تلك الليلة ، وأنا أتطلع صوب يوم السبت . . غداً . . ثم بعد غد . . وعندئذ معركة المصير فى العراق .

غداً . . ثم بعد غد ، وتضىء وجه الشعب بسمة انتصاره الذى قدم فيه أعز التضحيات .

غداً . . وبعد غد ، وتضىء شعلة عهد جديد .

هذه الساعات الأخيرة من هذا العهد المظلم البغيض ، ما كان أثقلها وأبطأها إذن ، كيف تقضت الأيام والليالى والشهور بعد الشهور ، فى هذا العهد الأسود ؟ . .

وأطفأت المصباح مرة . . وكان فجر . . ثم أطفأت المصباح مرة أخرى وكان فجر يوم جديد . . يوم السبت . . يوم المعركة الفاصلة فى العراق .

وما كادت الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم تقارب تمامها ، حتى أخذت كل فئة أهبتها ، بانتظار مرور عبدالكريم قاسم من النقاط التى عينت للتنفيذ .

◦ أخذ الرفاق الفدائيون مكانهم فى الشقة المستأجرة فى منطقة « رأس القرية » فى أول الزقاق المقابل لمحل « محمد جواد الساعاتى » .. كان هناك الشهيد عبدالوهاب الغريرى وعبد الكريم الشيخلى وصدام حسين التكريتى وحاتم العزاوى وسمير النجم وأحمد طه العزوز .

◦ ووقف سليم عيسى الزيبق ، على مقربة من السيارة القديمة ، من طراز « بويك » . التى اشتريناها لتقطع شارع الرشيد أمام سيارة قاسم لوقفها عن المضى فى الطريق ، ولتهيء للفدائيين فرصة تنفيذ العملية .

◦ وأخذ طه يس الذى وكلت إليه مهمة المراقبة من عيادة الدكتور حازم البكرى .. أخذ مكانه فى العيادة ، ينتظر الإشارة التليفونية ، التى تنبئه بمرور سيارة عبدالكريم قاسم من نقطة التنفيذ ، ليبلغ مجموعة الفدائيين بالأمر .

◦ ووقف بقية الرفاق المتطوعين ، فى نقاط المراقبة ، فى الباب الشرقى ، وعلى مقربة من سينما روكسى ، فى نهاية شارع الرشيد ، بالقرب من ميدان التحرير ، وبالقرب من وزارة الدفاع وفى باب المعظم .

◦ ووقف المناضل الطيب على حسون بسيارة الأجرة العائدة له ، والتى تطوع لنقل الفدائيين فيها ، بعد تنفيذ العملية .. ووقف فى شارع الجمهورية بالانتظار .

◦ وأخذ كل من إياد سعيد ثابت وخالد الدليمى وعبدالله الركابى

مكانه لكي يستطيعوا أداء أدوارهم الأساسية للاتصال ببقية الأطراف والجهات لإبلاغها بالنتائج ودعوتها للحركة .

• ووضعت جميع الفرق الحربية والصديقة فى أنحاء بغداد تحت الطوارىء ، دون أن تعلم تفاصيل الخطة وليكونوا على استعداد لأى احتمال .

فى الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم وبينما كان الجميع يأخذون أمكنتهم لأداء واجباتهم فى الخطة ، كان عبد الكريم قاسم مازال يغط فى نومه ، فى بيته ، فى العلوية . .

فى حوالى الساعة الواحدة ، سيغادر بيته . .

من أين سيمر ؟ . .

شارع الرشيد . . شارع الجمهورية . .

من أين ؟

الجميع بالانتظار . . كيف سيحدد عبد الكريم قاسم ساعة الصفر وأين ؟

ثم هل هو فى بيته الآن ؟ . . لقد كان عبد الكريم قاسم ينام فى وزارة الدفاع ، لا فى بيته ، ومن أجل معرفة المكان الذى نام فيه ، اتفق عبدالله الركابى مع صالح مهدى عماش أن يتصل به تليفونياً

بوزارة الدفاع ، ليعرف منه بطريقة اتفقا عليها ، أين قضى عبد الكريم قاسم ساعات نومه ، لكى تنظم نقاط الرقابة على أساس ذلك . .

ومرت ساعات وأخرى كان الانتظار فيها ثقيلا يكاد يمزق الصبر . . . ثم خرج عبد الكريم قاسم من بيته ، بعد ذلك . . . غادر قاسم بيته ، واتجه نحو شارع الشيخ عمر ، ليحظى ببعض الهتافات من زمر الشيوعيين أو بعض رجال أمنه المنتشرين فى الشوارع ثم انحنى إلى شارع غازى ، ومنه إلى باب المعظم ، فوزارة الدفاع ، ولم يمر فى موضع التنفيذ . .

لقد تأجلت ساعة الصفر !

لقد أفلت ، ولكنه لن يفلت إلى الأبد !.. فلننتظر فى المساء ، فقد يخرج ويمر من نقطة التنفيذ ، فتتعين ساعة الصفر التى طال انتظارنا لها ، حتى لكأنها الدهر !

وفى الساعة السابعة مساء ، غادر عبد الكريم قاسم وزارة الدفاع واتجه صوب الباب الشرقى ، من شارع الرشيد . . إذن فهو يقترب ، والساعة تقترب لحظة بعد أخرى ، من ساعة الصفر !

ولكنه ما كاد يصل ساحة الأمين قبل نقطة التنفيذ حتى تحول نحو جانب الكرخ — فى الضفة الأخرى من المدينة . .

مرة أخرى ، مضت عقارب الساعة تدور فى الفراغ ولم تقف عند ساعة إسمها ساعة الصفر !!

وحوالى الساعة الثانية ، ترك الجميع أماكنهم ، وعادت مجموعة الفدائيين التى أنيطت بها مهمة التنفيذ إلى البيت الصغير (المشتمل كما يدعى فى بغداد) والمخصص لاختفائها فى العلوية .

وأطفأت المصباح . . وأطفأ الجميع مصابيحهم . . وكان يوم جديد . . يوم الإثنين . .

ولم يمر قاسم من نقطة التنفيذ فى رأس القرية .

وفى صباح ذلك اليوم . . الإثنين ، أبلغ فيصل حبيب الخيزران القيادة القطرية بأن العقيد مدحت الحاج سرى يتعاون مع جماعة خاصة لتنفيذ عملية لاغتيال عبدالكريم قاسم ، وأنه يحتاج إلى مدفع أو مدفعين رشاشين لاستخدامهما فى العملية .

وحيث لم يكن لدينا أى فائض من المدافع الرشاشة ، وحيث لم تكن لدينا أية معلومات عن القائمين بهذه العملية ، خشية ارتباطها بخطط أوجهات مشبوهة أوغير قومية ، مما قد يفلت الزمام من أيدينا ، ويضيع علينا الغرض الثورى الذى أعددنا من أجله الخطة الثورية ، فقد آثرنا الاعتذار ، سيما وأننا قد علمنا بأن الملك حسين ، كان فى ذلك الحين ينشط نشاطاً محموماً فى العراق لإحداث تغيير فيه لصالحه . .

والحقيقة أن اعتذارنا عن تزويد تلك الجهة بالمدافع الرشاشة ، فقد أنقذتنا من التورط فى موقف ما كنا لنرتضيه لأحد منا

ولا لأية فئة قومية . فقد اتضح بعد ذلك أن شخصا يدعى كاظم العزاوى قدأعد ، مع جماعة له ، عملية اغتيالالعبدالكريم قاسم . وقد كشف التحقيق ، فيما بعد ، ارتباط هذه الجماعة بشخص بريطانى الجنسية يدعى « ليسلى مارش » أحد الذين يشرفون على جهاز المخابرات فى السفارة البريطانية .

وعلى أية حال انتهى ذلك اليوم .. صفراً .. دونما ساعة الصفر !

وأطفئت المصابيح ليوم جديد .. يوم الثلاثاء !. وما كادت تحل الساعةالواحدةوالنصف ، حتى ترك عبد الكريم قاسم بيته .. اتجه إلى الباب الشرقى ، دخل شارع الرشيد .. مشى صوب نقطة التنفيذ . هنا أمسك مدحت ابراهيم جمعة بجهاز التليفون وهو فى الانتظار بالقرب من بناية البنك العربى — فرع الباب الشرقى — وفرع الجرس فى عيادة الدكتور البكرى .. ورفع جهاز التليفون هناك طه يس .. كان مدحت يقول : « آلو .. شكرى يتكلم .. أنا شكرى ! » ووضع سماعة التليفون .. وهناك طه يس .. فهم أن عبد الكريم قاسم قادم إليهم صوب نقطة التنفيذ ، من الباب الشرقى .

وأسرع طه يس مهرولا إلى الشقة التى تقيم فيها مجموعة التنفيذ بالقرب من القيادة .. كان يصرخ من فرط فرحته وانفعاله بوجوه

رفاقه .. شكرى ! .. شكرى ! .. وخفّ كل واحد منهم لحمل مدفعه الرشاش ومضى .. ولكن الذى مضى قاسم .. فقد مرّ من نقطة التنفيذ قبل أن يبلغها جماعة التنفيذ .

أربعة أيام فيها من حرقة الانتظار ما تنوء به الأعصاب .. الانتظار ينفث فى الأعصاب حرقة ولا كحرقة اليأس .. الجميع متأهبون .. ولكن القدر لا يريد أن يطبق بيديه عقرب الساعة على ساعة الصفر ..

فما العمل ؟ .. هل نؤجل العملية أم ننتظر صباح يوم غد ؟ ..

٦

هذا هو يوم الأربعاء ٧ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٥٩ . . .
كان كل شيء في ذلك اليوم ، يبدو طبيعياً ، في الظاهر .. أما الأعماق .. أعماق الواقع في العراق ، فكانت تمور وتغلي . . .
في الصباح ، أطللت من وراء زجاج النافذة المطلة على الحديقة.. ومن وراء الحديقة كان الناس يروحون ويغدون . . خيل إليّ أن كل واحد من هؤلاء الذين أراهم في الشارع ، يحمل معه المأساة ... مأساة الألم والدماء .. فأية أعماق رهيبة ، كان ينطوي عليها العراق يومذاك . . ينطوي عليها كل فرد ؟ . . لقد خيل إليّ ، وأنا أطل من وراء النافذة ، أن المأساة قد رزح تحت ثقلها كل فرد من هؤلاء ، الذين أراهم أمامي ، يسيرون ومعهم ثقل المأساة . . . يسيرون وكأنهم ملاّح في عرض البحر بلا بوصلة ولا نجوم !
وعدت أذرع الغرفة ، جيئة . وذهاباً . . بانتظار شيء . . . من غير حيرة ، ومن غير قلق ، إلا بعض المشاعر المعقدة ، من القلق والإشفاق والإكبار والود ، وأشياء أخرى لا أستطيع أن أتبينها بالضبط ، حيال أولئك الشباب الفدائيين ، الذين ما زالوا ، منذ بضعة أيام ، بانتظار اللحظة التي ينطلقون فيها ، كبداية لساعة الصفر ، التي طال انتظارنا لها . . .

فى ذلك الصباح ، اتصل عبد الله الركابى تليفونياً بوزارة الدفاع ، وعلم من صالح مهدى عماش ، أن عبد الكريم قاسم مازال فى بيته .

إذن ، يبدو أن القدر قد أمسك بالساعة ، ليضبط عقاربها على ساعة الصفر !

الجميع قد أخذوا أماكنهم المعدّة لهم فى خطة التنفيذ . . . الجميع فى حركة ، ما عدا سيارة (البويك) القديمة الطراز ، والتى تقرر أن تقطع على عبد الكريم قاسم طريقه ! . . . لقد تحولت تلك السيارة ، إلى قطعة من الحديد الأصم الأخرس ! . . لا حراك بها ! . . حديد يريد أن يقف فى طريق القدر .. لا فى طريق عبد الكريم قاسم !

وقد جرت محاولات لإصلاحها ، ولكن دونما طائل ، مرت ساعة وساعتان ، والسيارة ما زالت حديداً أصم ، يجثم فى طريق القدر ، الذى خيل إلينا أنه مضى لضبط ساعته على الصفر . . .

مرت ساعة وساعتان ، وأوشك عبد الكريم قاسم أن يعود من بيته إلى وزارة الدفاع ، وما زالت كتلة الحديد فى عرض الطريق .

عندئذ ، طلب بعض الرفاق والاخوان تأجيل العملية ، ريثما يتم إصلاح السيارة . أما إياد سعيد ثابت ، فقد أصر على أن لا تأجيل اليوم ، بل تنفيذ ، وتنفيذ ، مهما كلف الأمر ! ولقد

تطوع إياد سعيد ثابت للذهاب بنفسه ، وبسيارته الخاصة ، لينتظر عبد الكريم قاسم ، فى نقطة التنفيذ ، ويقطع بنفسه الطريق عليه.

لقد قرر إياد ذلك ، ولم أكن أعلم عنه شيئاً . .

وعندما حلت الساعة الثالثة ، بعد الظهر ، طرق الباب علىّ ، مدحت إبراهيم جمعة . فدخل وأخبرنى بأن عبد الكريم قاسم لم يمر بموقع التنفيذ ظهر اليوم . . لقد ضاعت الفرصة مرة أخرى . واقترح مدحة بأن يؤجل تنفيذ العملية ، بضعة أيام أخرى ، إذا مر هذا اليوم دون تنفيذها . وقال بأن انتظار تنفيذ عملية ضخمة كهذه ، أمر مرهق للأعصاب حقاً . ولقد بدا التعب والإرهاق على أعصاب الشباب الفدائيين ، من زمرة التنفيذ ، ولم يسعنى إذذاك ، إلا أن أوافقه على رأيه هذا . فالحق أن انتظاراً كهذا الانتظار ، لا ريب يشد العصب شداً مرهقاً . فاتفقنا على عقد اجتماع قيادى فى المساء ، نبحث فيه أمر التأجيل ، إذا لم يحدث شىء حتى السابعة مساءً ، من ذلك اليوم .

خرج مدحة من دارى ، وبعد ساعة أخرى ، جاءنى إياد ، وأطلعنى على رأيه فى قطع الطريق على قاسم بنفسه ، فأخبرته أن من الأجدى بحث الموقف تفصيلا فى المساء ، إذا لم يقع حدث يغير الموقف قبل موعد الاجتماع .

على أن إياداً كان يرى أن المزيد من الانتظار ، من شأنه أن يعطل

حركتنا ، إلى حد بعيد . فقال لى بأن اليوم هو يوم العيد الوطنى لألمانيا الديمقراطية « الشرقية » ، وأن عبد الكريم قاسم سيذهب إلى الاحتفال الذى ستقيمه عثلية ألمانيا الديمقراطية مساء هذا اليوم .
واقترح إياد ، أن تنتظر زمرة التنفيذ فى مكانها ، فإن مر بها فى طريقه ، أتمت مهمتها ، وإلا فى الإمكان نقل الشباب الفدائيين إلى مكان الحفل لإتمام العملية هناك ، عند خروجه من الاحتفال .

وبعد بحث قصير ، وجدنا أن تغيير الخطة ، قد يعرضنا لأخطار جسيمة ، ورأينا أن من الأسلم المضى فى الخطة الموضوعة ، كما هى ، إلى حين عقد الاجتماع القيادى ، مساء ذلك اليوم .

غادرنى إياد ، ليراقب الأمور عن كثب ، وبقيت بنفسى ، أواجهها بسيل من الأسئلة والتساؤلات . واتجهت إلى غرفتى . وتناولت راديو (ترانزستور) ، وفتحته على محطة بغداد ، أملا فى أن أسمع شيئاً . . . شيئاً يلقيه القدر فى أسماعنا ، وقد طال بنا الانتظار لسماعه !

كان الوقت يمر بطيئاً متثاقلا ، كأن أقدامه من رصاص ! . . . اللحظات تمر زاحفة واهنة . . . وأنا أجوب الدار ، مرة فى غرفتى ، ومرة هنا وأخرى هناك .

وماكادت الشمس تنحدر وراء الأفق ، والظلام يهبط ببطء ، حتى صعدت إلى سطح الدار وارتميت على الفراش هناك . . وعلى

مقربة منى صوت محطة بغداد ، ينبعث من الراديو الصغير . . وأنا فى الانتظار . . . أنتظر أن أسمع هذا الصوت ينقطع . . . أنتظر أن أسمع .. من محطة الإذاعة من بغداد !... لقد سقط الطاغية ! .. سقط الطاغية تحت أقدام الشعب !

ما الذى سأفعله لو أن هذا الجهاز الصغير قال لى . . وقال للشعب بأسره بأن الطاغية قد سقط ؟

كنت أبحث فى ذهنى عبثاً عن جواب لهذا السؤال ، عندما سمعت أصواتاً تتناهى إلىّ من الشارع ... ضجيج أطفال ... زغردة نساء . . . فتيات وفتيان فى الشارع يهرولون ويصرخون ، ويتباشرون . .

قتل عبد الكريم قاسم . . .

قتل الطاغية ! . . .

وبسرعة أطللت من سطح الدار على الشارع ، فرأيت الناس يريدون أن يعبروا عن فرحتهم ، دونما جدوى . . كانت الفرحة فى تلك اللحظة جرياً فى الشارع على غير هدى ، وزغردات ، وهتافات من جمل متقطعة . . . كانت الفرحة أضخم من أى تعبير !

وبعد دقائق : جاءنى عبد الله الركابى ، وقال لى بأنه قد اتصل به إياد سعيد ثابت وأبلغه بأن عبد الكريم قاسم قد قتل . . .

قال لى ذلك ، ثم مضى مسرعاً للاتصال بصالح مهدى عماش ، إعداداً للمرحلة الثانية من الخطة الثورية .

ومرة أخرى ، أحسست بوطأة الزمن ، يمر بطيئاً متثاقلا ، وأنا أستمع إلى محطة بغداد ، بانتظار البلاغ الثورى الأول .. كل لحظة كانت زمناً مديداً مثقلا بأشياء مجهولة .

وبعد ساعة أو أكثر ، اضطرب وتر نشاز فى سياق الأحداث .

قطع المذيع البرنامج ليقول : إن عبد الكريم قاسم قد تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة . وقد أصيب إصابة طفيفة .. وإن إذاعة بغداد ستذيع له تسجيلا صوتياً .

وبعد وقت ليس بالطويل ، أذيع ذلك التسجيل الصوتى لعبد الكريم قاسم ، والذى دل على أن إصابته لم تكن بالطفيفة ، إذ كان ينطق الكلمات بصعوبة بالغة ...

لقد خيل إلىّ ، وأنا أستمع إليه ، أنه كالوحش الجريح الذى يجب الإجهاز عليه ، لأنه ما يكاد يرى الجرح حتى تستفيق فيه غريزة الدم ... دم الشعب الذى يريد أن يلغ فيه دونما ارتواء !

وقبل أن يبدأ موعد منع التجول ، الذى قدم الحاكم العسكرى العام موعده ، جاءنى عبد الله الركابى وإياد سعيد ثابت وعدد آخر من الرفاق والإخوان ، ومعهم القصة الكاملة ... القصة الكاملة .. التى لم تتم !

لقد خرج عبد الكريم قاسم من مبنى وزارة الدفاع حوالى الساعة السادسة والنصف مساءً ، متجهاً صوب الباب الشرقى ، لحضور الحفل الذى أقامته ممثلية ألمانيا الديمقراطية بمناسبة عيدها الوطنى ..

اتصلت نقطة الرقابة فى « محل العزاوى » ، مقابل المدرسة المأمونية القريبة من وزارة الدفاع ، بعيادة الدكتور حازم البكرى ... وأعطت أشارتها « محمود » أى إن عبد الكريم قاسم متجه إلى الباب الشرقى ، فى شارع الرشيد ...

التقط المراقب طه يس الاشارة وأبلغها ، بسرعة خاطفة إلى الشباب الفدائيين ...

الفدائيون هبطوا إلى شارع الرشيد ، فى مثل لمح البصر .. كل واحد منهم يمسك بمدفعه الرشاش الصغير ، يخفيه بطريقة ما ، وهو يتظاهر بالتريث هنا أو هناك ، أو بالتطلع إلى واجهات المحلات التجارية ...

سليم الزيبق أسرع إلى سيارته ، ولكن الحظ العاثر قد عطل مهمته ، إذ كان قد أوصد باب السيارة على مفاتيح السيارة فى الداخل .

وخلال لحظات . . . لحظات سريعة مثقلة بأعباء المسئولية ... دار هناك نقاش ، بين بعض الشباب الفدائيين . . .

هل نستطيع التنفيذ الآن ؟ . . .

هل تؤجل ؟ . . .

هل يمكن إتمام العملية ؟ . . .

دار هذا النقاش ، خلال لحظات . . . كل لحظة كان يقترب فيها عبد الكريم قاسم من نقطة التنفيذ . . . كل لحظة كانت مكاناً يتقلص وزمناً يتلاشى ، إذ كانت سيارة عبد الكريم قاسم تحث السير مسرعة إلى تلك النقطة . . .

كان التردد حقيقة أكدت نفسها ، خلال ذلك النقاش السريع المشوّش الذى كان يدور بين الشباب الفدائيين . . .

والتردد فى اللحظات الفاصلة ، من أخطر ما تعانيه كل حركة تتسم بالحسم . . .

سيارة عبد الكريم قاسم تقترب مسرعة . . . ثم هاهى فى نقطة التنفيذ بالضبط . . . وفى تلك اللحظة بالضبط ، أطلق عبدالوهاب الغريرى نارمدفعه الرشاش على سيارة عبدالكريم قاسم لحسم الموقف بلحظة . . . وبلحظة قضى على السائق، وأصاب المرافق (الياور) قاسم الجنابى الذى سقط مغشياً عليه فى الحال ، مصاباً بعدة طلقات .

وهناك تحرك الآخرون ، وأطلقوا نيران مدافعهم الرشاشة على قاسم . وتعطل أحد المدافع الرشاشة بيد أحد الشباب الفدائيين

بعد أن أطلق عدة طلقات ، وظهر أن مدفعاً رشاشاً آخر لم يطلق أية رصاصة

ورمى أحد الفدائيين قنبلة يدوية على سيارة عبد الكريم قاسم فسقطت فى الشارع ، بينما بقيت القنبلة الثانية فى جيب أحد الجرحى ولم يستطع إخراجها .

أما عبد الوهاب الغريرى فقد سقط شهيداً .

لقد أطلق الشهيد الغريرى النار على السائق والمرافق ، وبذلك يكون قد أنهى المهمة التى عـهدت إليه ، فى العملية . ولكنه ، بدافع من الجرأة والتضحية اللتين عرف بهما ، استدار حول سيارة عبد الكريم قاسم ليقضى عليه .

فى تلك اللحظة بدأت سيارة عبد الكريم قاسم تنحدر ، إذ كانت قد توقفت على أرض مرتفعة قليلا فى الشارع ... وبتحركها لم يعد وقوف الفدائيين منتظماً فتعرض عبد الوهاب الغريرى لرصاصات من رفاقه أردته قتيلا فى الحال ، كما تعرض صدام التكريتى وسمير النجم لنيران إخوانهما ، فأصيبا ببعض الجروح .

هنا حصل ارتباك فى صفوف الرماة ، إذ كانوا يخوضون عملية قتال لأول مرة فى حياتهم ، فبادروا للانسحاب ، قبل أن يتأكدوا من مقتل قاسم ، على الرغم من أن اثنين منهم قد كُلفوا بإطلاق الرصاص على رأس قاسم ، حتى بعد ضربه ، للتأكد من موته بصورة نهائية .

وهكذا تراجعت زمرة التنفيذ ، تحمل معها جراح صدام التكريتي وسمير النجم ، وقد خلفت وراءها جثة الشهيد الغريري .

وقد ركبوا بعد ذلك ، السيارة التي كانت مخصصة لهم ، لتنقلهم إلى البيت المخصص لاختفائهم .

• • •

بقي قاسم وحيداً ، تنزف جراحه دماً ، وهو ملقى في قعر سيارته . . . وما كان أسهل الإجهاز عليه ، وهو في هذه الحال ...

سيارته مهجورة في الشارع ، وهو ممدد فيها ، لا يستطيع حراكا ! . . .

إن ضربة واحدة أخرى تسدد إليه ، كافية أن تصبح بمثابة « قفلة الستار » على المأساة التي مثلها على مسرح العراق .

ولكن ، مهما يكن من شيء ، فقد ترك قاسم ، وهو على حاله هذا ، دون أن تسدّد إليه تلك الضربة الجديدة بأن تكون « قفلة الستار » !

وبعد دقائق ، بدأ الناس يقتربون من سيارة قاسم ، ويتطلعون إليه ، وهو ممدد لا حراك به . . . وتطوع بعضهم لنقل قاسم إلى مستشفى «دار السلام» بسيارته العسكرية فنقل هناك ، وبقي في هذه المستشفى يومين كاملين ، وهو بحكم الميت ، لا يستطيع حراكا ، وليس في طوقه أن يفعل شيئاً .

أما الشيوعيون ، فبعد أن تأكدوا من فشل المحاولة ، بدأوا يتجمعون ليُعدوا مظاهرات التأييد لعبد الكريم قاسم . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يقوموا بهذه المظاهرات إلا بعد وقت غير قصير من تلك الليلة . . . بدأوا يتجمعون أول الأمر ، بحذر وخشية أمام وزارة الدفاع ، وحول مستشفى دار السلام ، ولما تأكدوا من قدرتهم على التحرك ، بدأوا يفجّرون مظاهراتهم هنا وهناك ، وعلى نحو يزداد سعاراً مع الوقت .

* * *

فى تلك الفترة بالذات ، بدأ عبد الله الركابى باتصاله الفورى ، مع صالح مهدى عماش ، وعرض عليه أن بوسع الضباط الأحرار أن يتحركوا الآن ليقبضوا على ناصية الحكم بضربة واحدة . بيد أن صالح عماش أبلغه أن العبدى الحاكم العسكرى العام ، هو العقبة التى تقف فى الطريق ، وأن هناك بعض الآراء غير المنسجمة فى صفوف الضباط الأحرار ، الأمر الذى يجعل التحرك محفوفاً بالمخاطر ، وقـــد يعرض الضباط الأحرار ، إلى وضع لا تحمد عقباه ... ثم وعد عماش بأن يواصل جهوده مع الضباط الأحرار ، عله ينتهى إلى موقف إيجابى موحـــد . . . وافترق عنه عبد الله الركابى ، وعاد .

* * *

أما نجيب الربيعى رئيس مجلس السيادة ، فقد تبلغ هو الآخر ، فى أول الأمر ، بأن عبد الكريم قاسم قد قتل ، فلبس ملابسه العسكرية — كما بلغنى — وذهب إلى وزارة الدفاع ، ليقوم بالمهمة التى وعد بانجازها مع الضباط الأحرار . وقد أكد لى شكرى صالح زكى ، هذا الموقف الذى اتخذه الربيعى ، وتأيد لنا أكثر من مصدر واحد ، بعد ذلك .

ولكنه ما كاد يصل إلى وزارة الدفاع ، حتى علم بأن عبدالكريم قاسم لم يقتل ، واضطر أن يزعم بأنه جاء ليمنع الشيوعيين من السيطرة على الحكم .

ثم بلغنا أيضاً ، من بعض المصادر ، أن بعض الضباط الأحرار ، عندما رأوا أن العبدى يقف عقبة فى طريقهم ، اقترحوا عليه التعاون للسيطرة على الحكم ، فما كان من العبدى إلا أن رفض هذا الاقتراح وهددهم وأنذرهم بأنه سيفضح أمرهم إن هم قاموا بأية محاولة من هذا القبيل .

وهكذا أسقط بأيديهم ، وفقدوا الأمل نهائياً فى إمكانية التعاون مع أولئك الضباط الكبار الذين كانوا يتظاهرون بعدم الارتياح لحكم قاسم .

أما إياد سعيد ثابت ، فقد ذهب إلى البيت المخصص للاختفاء فى العلوية ، بعد عودة زمرة التنفيذ إليه ، فوجد سمير النجم فى

حالة خطيرة . وعلى الفور استقدم الطبيبين الدكتور عبد اللطيف البدرى والدكتور تحسين معلة . وبعد فحص الإصابة فى سمير قررا بأن الطلقة التى اخترقت صدره ، قد تهدد القلب ، وطلبا أن يرقد فى البيت وأن لا يتحرك بضعة أيام ، بعدها يمكن نقله إلى الإقليم السورى لإجراء عملية له . وقد حذراه من القيام بأى مجهود ، بعد أن قاما بالعلاج الضرورى .

* * *

فشلت الخطوة الأولى من الخطة الثورية ... وأصبحت ثورتنا ثورة لم تتم ! . . تلك هى الحقيقة التى يجب أن نواجهها اليوم ، وأن نتصرف وفقاً لها .

٧

فى صباح يوم الخميس ٨ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٥٩ ، عقدت القيادة القطرية اجتماعاً عاجلا ، لدراسة الموقف المعقد المنذر بالأخطار ، الذى نشأ عن فشل الخطوة الأساسية الأولى من الخطة الثورية ، والإخفاق فى إغتيال عبد الكريم قاسم . وبعد أن درست القيادة الموقف من كافة وجوهه ، بدت لها الأمور على النحو التالى :

• لم تستطع سلطات قاسم الاهتداء إلى من قاموا بمحاولة الاغتيال ، فلم تلق القبض على أىٍّ ممن اشتركوا فى العملية .

• إن نقطة الضعف فى الموقف ، هى مقتل الشهيد عبد الوهاب الغريرى الذى تركت جثته فى الشارع التى ستكون نقطة الإنطلاق فى البحث والتحقيق اللذين ستجريهما سلطات قاسم .

• هناك احتمال فى أن لا تستطيع سلطات قاسم الاستنتاج بأن الحزب هو الذى قام بهذه العملية ، نظراً إلى أن سلطات الأمن لم تعرف حقيقة الإتجاه السياسى للشهيد الغريرى ، إذ كانت تعتبره شيوعياً ، وهى التهمة التى كانت تلصقها سلطات الحكم الملكى الأسود بكل وطنى . إن سلطات قاسم ستعتمد الملفات القديمة للشهيد عبد الوهاب الغريرى ، فلا تعثر على هوية حقيقية لاتجاهه السياسى العقائدى .

هذا ما استطعنا أن نتوصل إليه . . . كما اتخذت القيادة قراراً بأن لا يغادر أيُّ عضو من أعضائها العراق ، وأوصت بأن لا يكون هناك أي اعتراض على مغادرة العراق من قبل أيٍّ ممن اشتركوا فى محاولة الاغتيال ، على أن يتم ذلك بصورة تدريجية ، وبمنتهى الحذر ، لكى لا يقع أى منهم بيد السلطات . ثم أوصت القيادة بأن الاختفاء داخل العراق ، هو أفضل فى الوقت الحاضر من الهروب إلى خارجه ، نظراً إلى أن السلطات لم تستطع أن تضع يدها على أيٍّ خيط يرشدها إلى القائمين بالعملية .

ولكن ، بعد بضعة أيام ، ألقى القبض على أحد الذين تطوعوا للمشاركة فى عملية الاغتيال الأولى التى خططت لها القيادة ثم ألغتها ، ذلك هو شاكر حليوة ، الذى لم يكن مشتركا فى العملية الثانية .

بعد إلقاء القبض على هذا الشخص بدأنا نوصى الشباب الفدائيين الذين قاموا بتنفيذ الخطة الخاصة بالاغتيال أو من لهم علاقة بها ، على مغادرة العراق ، باستثناء أعضاء القيادة القطرية ، الذين رأينا أن من الأفضل بقاءهم داخل العراق .

° ° °

وفى اليوم الثانى أو الثالث لفشل عملية الاغتيال ، بدأت الشائعات تتردد بأن عبد الكريم قاسم يزعم بأنه قد شاهد فيصل

حبيب الخيزران ، من بين الذين أطلقوا عليه النار وفعلا صدر أمر بإلقاء القبض عليه .

وفى الحقيقة ، أن أمر إلقاء القبض على فيصل كان مثار استغراب ودهشة بيننا ، إذ ليست له أية علاقة أو صلة بالعملية ، كما لم يكن هناك ، ممن اشتركوا فيها من يشبهه فى شكل الوجه أو القامة .

ولقد بذلنا جهوداً لمعرفة السبب الحقيقى الذى يكمن وراء إلقاء القبض على فيصل ، ولكننا لم نستطع التوصـــل إلى أية نتيجة فى أول الأمر . ثم حسبنا أن الأمر مجرد وهم من أوهام عبد الكريم قاسم .

ولكننا ، بعد بضعة أيام ، علمنا من أحد أعضاء هيئة التحقيق الخاصة التى ألفها عبد الكريم قاسم للتحقيق فى هذا الموضوع ، أن أمر إلقاء القبض على فيصل السبب فيه صلته بعملية اغتيال ، كان يعد لها شخص يدعى (كاظم العزاوى) .

ولقد كلفت القيادة القطرية خالد على الدليمى بالذهاب إلى فيصل لتزويده ببعض المال للهرب ، واطلاعه على جلية الأمر ، ونصحه بالهروب خارج العراق .

* * *

لقد كان إلقاء القبض على شاكر حليوة ، هو المنطلق الذى يمكن أن تنطلق منه سلطات قاسم لتصل منه إلى خيط يرشدها إلى معرفة الذين قاموا بالعملية. فلقد كان شاكر حليوة على علم بجميع تفصيلات العملية الأولى الملغاة ، وكان يومئذ يتدفق حماساً لتنفيذ العملية ، حتى إنه سافر إلى الإقليم السورى ، للاحتجاج لدى من تبقى من أعضاء القيادة القومية للحزب ، على إيصاء القيادة القطرية بتأجيل العملية الأولى ، ثم إنه قدم استقالته من الحزب ، احتجاجاً على هذا التأجيل .

ثم إن هناك احتمالا ، فى أن يتعرض شاكر حليوة إلى ألوان من التعذيب يضطر معها على الاعتراف . . خاصة وأنه زار وكر الاختفاء بعد فشل المحاولة ، ولكن الرفاق استطاعوا تضليله ، كما لم يمكنوه من معرفة سمير النجم الذى كان يرقد جريحا فى الوكر ، وتصور أنه مجرد شخص نائم !

إذن لابد من إتخاذ كافة التحوطات !

لابد ، قبل كل شىء ، من تغيير بيت الاختفاء (الوكر) الذى كان فى العلوية ، والذى يعرفه شاكر حليوة ، والذى قد يدل عليه السلطات .

ولقد بوشر فوراً ، بتغيير الوكر . وقد كلف خالد على الدليمى بانجاز هذه المهمة لنقل زمرة التنفيذ .

واقترحتُ على إياد سعيد ثابت وخالد على الدليمى أن ينتقلا إلى الدار التى أسكنها ، وألححتُ عليهما فى ذلك ، غير أنهما رفضا الفكرة ، وفضلا البقاء فى بيت الاختفاء فى العلوية .

واستطاع خالد وبعض الرفاق والإخوان أن يعثروا على بيت ملائم بديلا عن الوكر المعرض للكشف . ولكن قبيل البدء بانتقال زمرة التنفيذ إلى الدار الجديدة بساعات ، تمَّ إلقاء القبض عليهم . وكان ذلك فى يوم ٢٣ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٥٩ ، أى بعد ستة عشر يوماً من القيام بمحاولة الاغتيال .

بعد القبض على شاكر حليوة ، . طلبنا من جميع من لهم علاقة بالعملية أن يستعدوا للهرب خارج العراق فوراً ، ماعدا أعضاء القيادة القطرية . وفعلا تمَّ خروج عدد ممن لهم علاقة بالأمر إلى الإقليم السورى ، أو إلى الكويت ومن هناك إلى دمشق .

ولقد اتفقت مع خالد على الدليمى أن يزورنى فى الساعة السادسة من مساء كل يوم ، دونما انقطاع ، حتى إذا ، ما انقطع يوماً من الأيام أصبح محتملا لدىَّ بأنه قد ألقى عليه القبض .

وعندئذ أستطيع أن أتخذ الاحتياطات فأنتقل من دارى إلى دار أخرى .

وفى اليوم الذى سبق إلقاء القبض على الشباب الفدائيين من زمرة التنفيذ ، جاءنى خالد وملابسه تقطر ماء ، إذ كان الجو

مطيراً ، وأبلغنى بأن الدار قد أعدت لنقل أولئك الشباب . . .
وغادر دارى ومضى . . .

وجاء اليوم الثانى . . . حلت الساعة السادسة مساء ، ومرت ساعة وأخرى . . . ومرت الساعات دون أن يطرق الباب خالد .
وكنت قد ظننت أول الأمر أن إجراءات الانتقال إلى الدار الجديدة قد شغلته عن المجىء .

وقبيل موعد منع التجول بدقائق ، جاءنى عبد الله الركابى ، فأخبرته بتغيب خالد على الدليمى . ولكن لم يدر بخلده وخلدى أى سبب مثير بالرغم من بعض القلق الذى كان يساورنا . ولكن على أية حال ما كان أمامنا سوى الانتظار إلى الغد ، فقد بدأ موعد منع التجول .

وفى اليوم التالى ذهب عبد الله الركابى واتصل تلفونياً بخالد ، ثم عاد إلىّ وقال بأن خالد سيصل اليوم فى الموعد المحدد ، ولكن الموعد المحدد جاء ولم يأت خالد ، وعاد عبد الله الركابى للاتصال به تلفونياً فى اليوم التالى فوعده بالمجىء فى الموعد ، ولكن عبثاً كان الانتظار .

وفى اليوم الرابع من محاولة الاغتيال، طلبت إلى عبد الله الركابى أن يذهب إلى رفيقنا سعيد أسود ليستطلع منه بعض الأنباء ، فعاد عبد الله

الركابى ، ليخبرنى بأن السلطات قد ألقت القبض على من فى وكر العلوية من الشباب . وأن رجال الشرطة هم الذين كانوا يتكلمون مع عبدالله الركابى فى التلفون ، وقد فات عليه ذلك .

إذن ، فقد قبضت السلطات على كل شيء . . . لقد أصبح المصير واضحاً كل الوضوح .. لقد أصبح الموت يمد بمخالبه لينشبها فى جسد كل واحد منا ، سواء منهم الذين ألقى عليهم القبض أو الذين ينتظرون إلقاء القبض .

فى تلك الفترة نصحنى بعض رفاقنا بمغادرة العراق على الفور ، ولكننى رفضت ذلك بشكل قاطع ، وقررت البقاء إيماناً بصلابة وصمود رفاقنا الذين ألقى عليهم القبض . ولمجرد الاحتياط رأيت أن من الأفضل الانتقال إلى دار جديدة أخرى اختفى فيها .

ولكن البحث عن دار جديدة ، على بساطة هذه العملية ، قد غدا من الأمور الصعبة المحفوفة بالمخاطر . كما لم يكن هناك من الاشخاص من أتصل بهم سوى عبد الله الركابى ، وليس ثمة من شك أن الأمر بإلقاء القبض قد صدر عليه هو أيضا . . . ولكن لابد مما ليس منه بد .. لابد من شيء من المغامرة . . ولقد بدأ المغامرة هذه عبد الله الركابى ، وبدأ يبحث لى عن دار جديدة أخرى .

غير أنى بدأت أفكر فى الاختفاء لدى أسرة من الأسر الصديقة

والأمينة . وأطلت البحث فى الذهن عن مثل هذه الأسرة وأخيراً اهتديت إليها . . . إنها أسرة حازم جواد (وزير الدولة الحالى) ، وهو من أعضاء الحزب القياديين وابن خالتى أيضاً .

ولقد ذهب عبد الله الركابى يعرض على أسرة حازم هذا الاقتراح، فوافقوا على الفور ، وبكل ترحاب . فذهبت إليهم ، وقضيت معهم حوالى أسبوع ، ريثما تم استئجار الدار الجديدة الأخرى ، فى الأعظمية — السفينة — فانتقلت إليها .

وهنا فى هذا البيت الجديد الواقع فى أحد الشوارع الفرعية المحيطة بمعمل النسيج ، بدأت أعمل بصورة تدريجية على إعادة التنظيم الذى أصيب بضربة قاصمة شديدة . . .

لا بد من تشكيل قيادة قطرية جديدة . . .

لابد من ملء المراكز التى بقيت فارغة فى القيادات والمنظمات الحزبية التى تعرضت للضربات .

وكنا ونحن نتصل ونعمل بحيطة وحذر، نراقب البيت الذى كنت أختفى فيه قبل ذلك . . هل ستداهمه السلطات ؟ هل تعرفت عليه سلطات الأمن أم لا ؟ لأن معرفة ذلك ، تزيدنا معرفة فى تقدير الموقف ولاشك ... تجعلنا نعرف بأن السلطات قد استطاعت أن تحصل على اعترافات :

وفى الرابع عشر من تشرين ثانى (نوفمبر) ١٩٥٩ ، ذهب عبد الله الركابى ، يستطلع الأمر ، فأخبره الجيران بأن قوة كبيرة

من الجيش ، قد جاءت إلى البيت وطوقته من كافة جوانبه ، بعد موعد منع التجول . . . وكان الجنود فى حالة استعداد لإطلاق النار ، كأنهم يريدون اقتحام قلعة حصينة !

واقتحم الدار ماجد أمين بنفسه ، ولكنه أحس بخيبة أمل ، عندما وجده خالياً ، إلا من بعض الأثاث ، وبعض الأوراق المحروقة ، فعلموا أننى تركت الدار قبل وصولهم إليها . بيد أنهم لم ييأسوا ، بل بقى ماجد أمين وبعض الجنود مختبئين فى الدار ، بانتظار عودتى إليها وإلقاء القبض علىّ !

وعلى الرغم من أن عدداً من الجنود ظلوا مقيمين خمسة أيام فى الدار ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يلقوا القبض على أحد فيه . إذ أننا قد أبلغنا كافة الرفاق والإخوان بالأمر ، ممن يحتمل مجيئهم إلى الدار .

الآن اتضح كل شىء . . .

لقد تمكن قاسم أن يتوصل — على ما يبدو — إلى معرفة القائمين بالعملية . .

ولقد أصبح حكم الإعدام أمراً مؤكداً وبديهياً .

لقد طلب إلىّ جميع الرفاق ضرورة مغادرة العراق ، بعد كل هذه التطورات . ولكنى صممت على البقاء ، حتى يتم تشكيل القيادة القطرية الجديدة ، التى يرجع الفضل فى تشكيلها إلى أولئك الرفاق الذين عملوا ليلا ونهاراً وفى ظل أبشع ظروف الإرهاب . . .

يروحون ويغدون ويعملون بكل بسالة وجرأة ، وأوامر إلقاء القبض تطاردهم فى كل مكان .

وما إن مر عشرون يوماً أو نحوها على إلقاء القبض على إياد سعيد ثابت وخالد على الدليمى ورفاقهم الآخرين . حتى نجحنا فى تكوين نواة جديدة لقيادة جديدة ، تشرف على التنظيم ، ريثما تمر آثار الضربة القاسية ، فتوسع إطارها وعددها ، أو تتولى القيادة بشكل أصيل .

لقد فرغنا من ذلك . . . فرغنا من هذه المهمة التى ما كان لى أن أغادر العراق دون إنجازها . . .

أما الآن . . فإلى الطريق خارج العراق . . .

٨

ثورة لم تتم ... ! تلك هى الخطة الثورية ، التى بدأناها بعملية الاغتيال ، ففشلت . وإذا لم تتم الثورة ، فإن التتمة تكون فى سفك دماء أبنائها ! ... لقد بدأت تطبق علينا مخالب الوحش الذى جرحناه ، ولم نجهز عليه .

إذن ، لامناص من الاعتراف بأننا سنغدو أول ضحايا الوحش الذى بدأ يستفيق من جراحه ويلعقها ، ليلغ بالدماء مرة أخرى... ومرات .

فحددنا يوم ١٣ تشرين ثانى (نوفمبر) ١٩٥٩ ، موعداً لمغادرة العراق إلى الإقليم السورى .

ولـكن كيف السبيل إلى ذلك ؟

مسالك بغداد ، قد فرضت عليها رقابة شديدة ... مداخلها ومنافذها تحت حراسة ثقيلة جداً . كل سيارة تفتش تفتيشاً دقيقاً ... الحركة صعبة ، بل تكاد تكون فى حكم المستحيل ! ... لا يتحرك فرد إلا وهو معرض أن تطلب منه السلطات هويته (بطاقته الشخصية) .

أما نحن فلم نكن مستعدين للهرب ، وليست لدينا الهويات

المزوّرة التى نستطيع أن ننفذ بها من المسالك والمخافر المنتصبة فى كل مكان ... وليس أمامنا سوى بضعة أيام عن الموعد الذى حددناه .

واهتدينا أخيراً إلى أن أفضل وسيلة ، هى أن يرافقنا أحد رفاقنا العسكريين بزيه العسكرى ، لنمرّ من نقاط التفتيش وننفذ .

ولقد اتصلنا بالضابط الطيار منذر توفيق الوندادى ، قائد الحرس القومى حالياً .

وفعلا وافق منذر على هذا الاقتراح ، وجاءنا بسيارة صديق له، وكان هو نفسه يقودها ، مرتدياً بزته العسكرية .

واقترحنا أيضاً ، أن يصحبنا أحد رفاقنا ممن له علم بالطريق إلى الإقليم السورى ، فوقع الاختيار على حازم جواد .

وفى صباح يوم الجمعة ، كان كل شىء جاهزاً ... الهويات المزورة ... منذر توفيق الوندادى بسيارته مستعد أن يجتاز بنا عوائق التفتيش ... حازم جواد على أهبة الاستعداد أن يرافقنا ليوصلنا إلى الإقليم السورى ، بعد أن سبق له الهرب عن هذا الطريق ومعرفته جيداً .

وتقرر أن يكون سفرنا من الفلوجة ، نسلك بعدها طريق الصحراء إلى الحدود السورية .

* * *

وفى حوالى الساعة الخامسة من ظهر يوم الجمعة ١٣ تشرين ثانى (نوفمبر) ١٩٥٩ ، جاءنا منذر توفيق الوندادى ، مرتدياً بزته العسكرية ، يسوق السيارة التى استعارها من أحد أصدقائه، فركبت السيارة ، ومعى عبد الله الركابى وحازم جواد ... وانطلقت بنا السيارة فى طريق الرمادى ، إلى الفلوجة .

وبعد دقائق ، وصلنا (جسر الحر) ، وهو بمثابة عنق الزجاجة ، من يفلت منه نفذ ونجا ، والإفلات منه نجاة من مصيدة الموت ! فقد وضع عبد الكريم قاسم على هذا الجسر نقطة رقابة شديدة ، مكونة من عدد كبير من ضباط الشرطة وقوات الشرطة والجنود .

كان التفتيش دقيقاً ... كان ضباط الشرطة ، يطلبون بطاقات الهوية ، ويتفرسون فى الوجوه بجشع ، كما لو كانوا يساءلون أنفسهم ... من هو الذى سنلقى القبض عليه ؟ ... كانت عملية التفتيش الدقيقة هذه جديرة بأن ترعب الأبرياء من الناس ... التفتيش دقيق وبطىء ، والسيارات تزداد عدداً ، وتتراكم فى طوابير طويلة على الجسر والطريق ... والتفتيش يقترب منا رويداً رويداً ، وعيوننا تتابع ضباط الشرطة وهم يقتربون من سيارتنا .

كانت نظرة واحدة من أولئك الضباط إلىّ ، قد تعرّفهم على شخصيتى ... نظرة واحدة من أحدهم ، قد تتلوها يد تقتلعنى من مقعدى فى السيارة ، وتعود بى أدراجى إلى بغداد ... ومعى رفاقى

الآخرون ... إلى أين ؟ ... إلى مصيدة الموت ! إذ لم أكن قد أجريت أى تغيير أساسى فى شكلى وملامحى ، سوى أنى أجريت بعض التغيير فى شعرى ، وأطلت شاربى ، بعد أن كنت حليقاً ، ووضعت على عينى نظارة طبية ... ولكن هذه التغييرات لم تخف ملامحى وقسمات وجهى الأساسية ...

وسيارة بعد أخرى ، تعبر الجسر ، والتفتيش يقترب من سيارتنا ، وقلوبنا واجفة فى الانتظار ... وعلى حين بغتة أصدر الضابط المسئول عن التفتيش أمره ، بأن يخلى السبيل لسيارات الجيش وسيارات الضباط الخاصة ، نظراً لتكدس مئات السيارات فى الطريق .

فتنفسنا الصعداء . . فقد فتحت مصيدة الموت بوابتها ، لنخرج منها . . وتحركت سيارتنا التى كان يقودها صديقنا الضابط ، ومرت من أمام نقطة التفتيش ، مع التحيات العسكرية من بعض الجنود الذين كانوا واقفين هناك .

وفى منطقة (أبو غريب) ، وقفنا عند نقطة تفتيش ثانوية .. كان هناك جندى واحد مسئول فى تلك النقطة ، فقدمنا له هوياتنا المزورة ، فنظر إليها ، ونظر إلينا ، ثم أخلى السبيل لنا ، فانطلقت سيارتنا إلى الفلوجة .

وصلنا إلى الفلوجة ، بعد مغرب الشمس ، فذهبنا إلى بيت

أحد رفاقنا ، وهو المرحوم طالب عريم ، فاستقبلنا المرحوم استقبالا حاراً وأدخلنا صالون الضيوف ، ثم ذهب إلى غرفة أخرى ، وكان معه شخص آخر تطلعنا إليه ، فإذا به على صالح السعدى .

فرحب بنا هو الآخر ، ولما سألناه عن سبب مجيئه إلى الفلوجة ، أخبرنا بأنه قرر الهرب إلى سوريا لمعالجة أسنانه التى بدأت تتعبه وتؤذيه أذى شديداً ، ولا قِبَل له بمعالجتها فى بغداد ، نظراً لمطاردة الشرطة له .

وبقينا فى دار طالب عريم أياما بانتظار تهيئة بطاقات مزورة أخرى نستطيع الخروج بها من الفلوجة . وقد هيئت لنا هذه البطاقات ، كما استؤجرت لنا سيارة تنقلنا فى طريق الصحراء ، مع دليل بدوى متمرس بالصحراء ومسالكها . .

لقد قضينا فى الفلوجة . . فى دار رفيقنا المرحوم طالب عريم ، بضعة أيام ، كان فيهما مثال الخلق والكرم العربيين . . . أيام لا تفتأ ذكراها ماثلة أمامى ، تؤكد لى قيمنا الإنسانية الجميلة . . . تؤكد لى جوهر الإنسان العربى ، المطبوع على مثل لا تضيع منا ، إلا لنجدها مرة أخرى ، عميقة متأصله ضاربة فى أغوار الوجود العربى النبيل .

لقد تهيأ كل شىء . . وأعد الجانب الأكبر من ذلك ، المحامى

عبد المجيد الجميلي ، وهو أحد الشباب القومي الصادق المخلص في تلك المدينة العربية الطيبة .

وفي الأيام الأخيرة من شهر تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٥٩ ، في حوالي الساعة التاسعة مساء ، كنا جميعاً نعد أنفسنا للتحرك صوب الصحراء ، لنجتازها إلى الإقليم السوري ... لبسنا الملابس العربية التي هيئت لنا ، وجهزنا بالبطاقات المزورة . وكان اسمي فيها (فرج محسن الشيحاوي — مهنته كاسب) !

لم نعبر الفرات ، في الفلوجة ، عن طريق جسرها الحديدي ، بل من نقطة تقع إلى الجنوب الغربي من المدينة ، وعلى مسافة قريبة منها ، وذلك تفادياً لتلك الرقابة الشديدة المفروضة على الجسر .

وفي الجانب الأيمن من الفرات ، ركبنا سيارة خاصة ، انطلقت بنا في طريق زراعي ضيق تحفه البساتين من صوبيه . وبعد مسيرة نصف ساعة تقريباً على الجانب الأيمن من نهر الفرات ، وصلنا إلى قرية صغيرة من قرى الفلاحين ، أعد الجميلي مبيتنا فيها ، وقد استقبلنا الفلاح الذي وفدنا إليه ، بتوصية من الجميلي ، بحفاوة بالغة .

وكنا ونحن نلبس اللباس العربي هذه المرة نحس بأن أي ثلة من شرطة الحراسة في الصحراء ، لو قابلتنا لكشفت أمرنا ،

ولوقعنا غنائم باردة بين يديها . . . إذ ما الذى يجدينا من هذه الملابس الفضفاضة التىما كنا نحسن حتى المشى بها ، كما لا نحسن لهجة العربى البدوى من هذه المنطقة . .

وعلى أية حال ، فقد استقبلنا الفلاح البسيط ، وبيده فانوسه الزيتى ينبعث منه نور خافت لا يكاد يبين لأحدنا وجوه رفاقه ، وأدخلنا إلى غرفة صغيرة مبنية من الطين ... جلسنا على الأرض، وبدأنا أحاديث من السمر الممتعة . . . وكان موضوع التندر فى تلك الليلة ، هما صورتى عبد الكريم قاسم والمهداوى اللتين كانتا معلقتين على حائط تلك الغرفة !

وفى ساعة متأخرة من الليل ، أوينا إلى الأفرشة المعدة لنا .. وفى الصباح ، جاء مضيفنا ومعه طعام الإفطار .

وفى نحو الساعة الثانية ، بعد الظهر ، ركبنا السيارة ، ومعنا البدوى الدليل ، وتقدمتنا سيارة أخرى ، ركب فيها الجميلى وعدد من الرفاق من سكان الفلوجة ، وانطلقنا فى الصحراء ، على مقربة من الطريق العمومى ، حتى بلغنا ، قبيل المغرب ، نقطة خطرة ، فيها أكثر من احتمال .. هذه النقطة ترتادها الشرطة دوماً فى الليل والنهار ، لأنها الطريق التى يسلكها المهربون فى معظم الأحيان . ولكننا وصلنا هذه المنطقة ، ولم نر أى أثر للشرطة . وبعد قليل وصلت إلينا سيارة أخرى ، فنزل منها بعض الرفاق والإخوان ،

وكان من بينهم ضابط الشرطة فى الفلوجة الذى قدم لنا العون على الإفلات والهرب ، والذى حول دوريات الشرطة إلى الجهة الأخرى من نهر الفرات لتكون بعيدة عنا . . . لقد جاءوا جميعاً فى وداعنا . . .

نزلنا على رمال الصحراء ، وكانت الشمس تجنح للمغيب . . . وتقدم إلينا الرفاق والإخوان لوداعنا . . . كانت قطرات من الدمع تحار فى عيونهم . . . هناك على رمال تلك الصحراء العربية التى تقلبت عليها القرون والدهور ، وقف هذا الجمع من الشباب ، تشدُّهم إلى بعضهم البعض وحدة العقيدة ووحدة المصير . . .

عبثاً يحاول القلم تصوير تلك اللحظة الرائعة المهيبة من لحظات الوداع . . . فى أعماق تلك الصحراء ، وفى جنباتها تزأر الريح . . . الصحراء برملها الساطع النقى كالطهر والعفاف . . . هناك كانت لحظة الوداع . . . لحظة ثوت فيها . . فى أعماقها أجمل المعانى التى يعتز بها الإنسان !

وهبطت الشمس ، وراء الرمال الصامتة ذات الألغاز والأسرار . . وكان الوداع . . . كانت وجهتنا صوب الأفق فى الغرب ، وكانت وجهة الرفاق والإخوان صوب الشرق . . .

قضينا الليل بطوله نسير بالسيارة عبر صحراء قاحلة . وكان أى خطأ فى الاتجاه ، يكفى لإيقاعنا فى براثن التهلكة . كان سائق

السيارة رابط الجأش هادئاً ، وكان دليلنا البدوى واثقاً من نفسه . كان يوقف السيارة بين ساعة وأخرى ، ليتأكد من صحة وجهتنا من مواقع النجوم ، ومن النجم القطبي ، ومن رمال الصحراء ، التى يشمها أو يراها على ضوء القمر الساطع فى تلك الليلة . .

وقبيل الفجر بساعتين ، توقفنا وسط الصحراء ، وأخذنا قسطاً من الراحة . . نام بعضنا ، ولم يستطع البعض الآخر أن ينام . . كانت برودة الفجر فى الصحراء قارسة .

كان القمر ما يزال يرسل بأنواره الشاحبة على تلك الفجاج المترامية من الرمال . . .

وكانت أنسام الفجر الوادعة تنشر أجنحتها بطمأنينة ودعة ، كغلالة من نور ذلك الفجر . . .

وقفتُ هناك على الرمال ، واستقبلت بقايا الظلمة فى الشرق ، حيث بدأ الفجر يتسلل بسكينة وهدوء . . .

وبدأت الخواطر تزحم الذهن . . .

أىْ وطنى ! . . إلى متى تظل أرضك مسرحاً لمشاهد الجور الدامى !

إلى متى تمرُّ السنون على دجلة والفرات ، وعلى بقاع أخرى من أرضك النقية نقاء هذا الفجر ، وما تزال تربتك تخضبها دماء الشهداء من أبنائك ؟

إلى متى تمر السنون تلو السنون ، وهى مليئة بالفواجع والمصائب والآلام ؟

إلى متى شعبك الجبار يظل يجالد قوى الظلام ؟ . .

إلى متى تظل تدمى قروح أبنائك من هذا الجلاد ؟ . . .

وفى زحمة تلك الخواطر ، أحسست كأن الزمن يتراجع ورائى . . . وانهزم الزمن أمامى إلى آفاق قصية فى المستقبل ، فرأيت النصر منتصباً . . .

منتصباً كالجبار بعد كل هذا الجلاد وذاك الصراع .

ألا ما أروع تلك اللحظات التى قضيتها أمام ذلك الفجر الصحراوى الوديع . . . إنه ليشد أوتار النفس ويستنطق النفس !

ثم عدت ، بعد ذلك ، إلى السيارة فرأيت الرفاق يغطون فى نوم هادىء عميق .

وما كادت خيوط الفجر تنتشر فى عرض الأفق ، حتى استيقظ الرفاق وبدأنا السير مرة أخرى . ومع إشراقة الشمس ، كنا قد عبرنا الطريق العمومى الذى يربط ما بين الرمادى والرطبة ، وكان خالياً من أية دورية للشرطة ، فدخلنا الصحراء من الجهة الأخرى للطريق واتجهنا نحو « حصيبة » على الحدود السورية العراقية .

ومضت السيارة ، تطوى الصحراء ، عدة ساعات حتى الظهر .

وعندئذ بدأت تظهر وراءنا سحابات كأنها سحابات من غبار . . . إذن فنحن مطاردون فى أرض عراء ! وانطلق السائق بسيارته ، بأقصى سرعتها ، وابتعد عن الجهة التى تتعالى منها تلك السحابات المريبة المثيرة ، وبعد ربع ساعة من السير السريع دونما وجهة ، هنا وهناك ، بدأ الجميع يضحكون ! . . . لم تكن هناك سحابات من غبار . . ولم تكن هناك مطاردة ، بل كان هناك دخان يتعالى من إحدى محطات ضخ البترول فى نقطة (تى ٢) وهى محطة ضخ تقع ضمن الأراضى العراقية ، ثم اتجهنا بعد ذلك ، إلى محطة (تى ١) الواقعة ضمن الحـــدود السورية والتى بلغناها بطريق المصادفة ، ودونما قصد .

وبعد فترة من الوقت ، خيل إلينا أننا ضللنا الطريق ، إذ بانت أمامنا محطة لضخ البترول ، ولكى نتأكد مما إذا كانت ضمن الأراضى السورية ، نزلنا من السيارة وذهب السائق والدليل ، لكى يتأكدا بنفسيهما من الأمر . فعادا بعد بضع دقائق ، ووجهاهما يتهللان فرحاً وبشراً . . . إننا فى أرض الجمهورية العربية المتحدة !

لقد اتجهنا صوب محطة الضخ ، وما بلغناها حتى بدا أمامى ، علم الجمهورية العربية المتحدة بنجمتيه الخضراوين ، هذا العلم الذى يثير فى نفسى معانى تهزنى من الأعماق ، كلما تطلعت إليه . . . يثير فى نفسى معانى شتى عن مصير أمتنا ، ومستقبل نضالها ، عندما

تتسع هذه الجمهورية وترحب لتستوعب الوطن العربى بأسره بعد تصفيته من الأدران والأرجاس . . .

هناك فى محطة الضخ الثانية ، استقبلنا الموظفون والعمال وشدوا على أيدينا . . . وتناولنا طعام الغداء ، وبعد ذاك بنحو ساعتين ، ودعنا السائق والدليل .وإذا بالسائق يشد على يدى ويقول « وداعاً يا أستاذ فؤاد » . . . إذن فهو على علم بشخصى ، وإنما كان يتظاهر بعدم معرفته إياى .

وقبيل غروب الشمس ركبنا سيارة جيب صغيرة ، واتجهنا إلى دير الزور . . . إلى حلب . . . إلى دمشق . . . ثم بعد ذاك إلى القاهرة .

فى جمهوريتنا العربية المتحدة قضيت أكثر من ثلاث سنوات ، كلها تجارب غنية ...كلها تأكيد لما آمنت به... كلها ترسيخ المفاهيم التى ضحينا من أجلها ، ونضحى . . .

ثلاث سنوات وأكثر ، تغير فيها الكثير والكثير . . . نكسات أصابتنا وانتصارات سجلنا . . . وبدأ الزحف الثورى من نقطة أعلى مما كان عليه بالأمس . . .

أما محكمة المهداوى فقد عادت تحاكم وجبة أخرى من الأحرار ...

المهداوى يصرخ زيفاً وتضليلاً وزوراً . . . باسم الشعب !..

وباسم الشعب كانوا يجزرون الشعب ! !

٩

غادرنا حدود الإقليم السورى ، إلى دير الزور . . . دير الزور تلك المدينة العربية الراسية على أطراف البادية المترامية الآفاق . . . فى هذه المدينة قابلت عدداً غفيراً من رفاقنا وإخواننا ، توافدوا على الفندق المتواضع الذى نزلت فيه . وكانوا جميعاً يتدفقون حماساً مشبوباً ، وإيماناً لا تزحزحه الأهوال . . .

وفى اليوم التالى ركبنا السيارة ، توجهنا إلى حلب . . . وقد وصلناها ليلا .

حلب ! . ما أروع المعانى التى تثيرنها فى النفس !

حلب .. ياذات القلعة الشماء التى تفيأت ظلالها أمجادُ التاريخ ! ..

حلب هذه المدينة العربية الباسلة التى احتضنت تخوم الوطن من الشمال ، والتى ارتدت عنها جحافل القرون المبيدة ، دون أن تخدش عروبتها أو توهن قناتها ! . . .

على صخور المدينة الشهباء خط العربى أنصع سطور التاريخ ...

هنا فى هذه المدينة العربية الباسلة ، استعدت صفحات من تاريخ هذا الشعب المجيد . . . تذكرت كيف انسحقت تحت أقدام تلك القلعة موجات وموجات . . . وضاعت فى تيه التاريخ . . .

ألفَ تحية لك يا حلب الشهباء . . . يا قلعة التخوم فى الشمال ! . . .

ألفَ تحية لك بكل ما فى صدرى من أنفاس ، وما فى قلبى من مشاعر وإحساس ، فكم لك من ديون قديمة وجديدة فى أعناق أجيال العرب !

ما وطئتُ أرض حلب ، حتى تملكنى شوق عارم ، للقاء طليعة شبابها العربى الذين خاضوا ، مع جميع أبنائها ، كل معركة من معارك العرب . . .

وهناك التقيت بعشرات وعشرات من شباب حلب المناضلين .

ولقد رغبت فى البقاء فى حلب بضعة أيام ، ألقى فيها عن النفس متاعب الشهور التسعة التى قضيتها مختفياً فى بغداد ، تطاردنى فيها يد الموت ، وتتهددنى ، فى كل لحظة أن تطبق علىَّ لتلحقنى بأخوان لنا مضوا من قبل !

لقد بقيت فى حلب ، وودعت رفاقنا الآخرين الذين جاءوا معى ، إذ توجهوا إلى دمشق .

لقد أمضيت ثلاثة أيام فى حلب ، كانت مليئة بأجمل اللقاءات ، التى تركت رصيداً مذخوراً من الخواطر والذكريات . ثم غادرتها إلى دمشق .

وفى دمشق التقيت بجميع الرفاق الذين سبقونى إلى دمشق ولجأوا إليها هرباً من الطغيان القاسمى . . .

التقيت بهم ، وتحدثت إليهم . . .

تحدثنا عن معركة العراق . .

تحدثنا عن احتمالات الموقف . .

تحدثنا عن مخطط قاسم . . .

تحدثنا عن كل شيء يهمنا . . .

وتحدثنا عن عملية الاغتيال . . .

ولقد وجدت أن جميع أولئك الرفاق ، كانوا يعتبرون هذه العملية هى « الحل الأوحد » للوضع الذى كان يعانيه العراق آنذاك . ويرون فيها عملية باسلة جريئة ، ملأت صفحة من صفحات النضال الثورى لحزبنا . . . بل النضال العربى فى العراق .

كان جميع الرفاق يتحدثون عن تلك العملية حديث الفخر والاعتزاز ، وكان يزدهيهم الحديث عنها ، إذ يرون أنها من السمات الثورية الفعلية التى جسدها حزبنا بسلوك ثورى سليم .

لقد كان هؤلاء الرفاق يرون أن هذه العملية قد دفعت بالحزب إلى أعماق كتل الجماهير الشعبية فالتحم بها . . . لقد رفعت من ثورية الحزب ، وأكدت أصالة أسلوبه الثورى . . . حتى كنت أستمع أحياناً إلى أحكام ، قد يكون فيها شيء من الغلو والإمعان ، كأن يقول البعض إن هذه العملية بالذات هى وحدها التى جعلت من حزب البعث حزباً ثورياً ، بما يحمله هذا القول من غلو .

لقد استمعت إلى الكثير من الآراء والأحكام . . .

واستمعت إلى الكثير من الاستنتاجات . . .

ولكنى لم أسمع ، ولا رأياً واحداً . . ولا حكماً واحداً . . . ولا استنتاجاً واحداً ، من شأنه أن يغض من قيمة هذه العملية الثورية آنذاك . .

كان الجميع من القياديين والرفاق الآخرين يتحدثون عن العملية فضلا عما فيها من جرأة وبسالة ، بفيض من الحماس الثورى والإعجاب . . .

وبعد بضعة أيام غادرت دمشق إلى القاهرة ، وأمضيت فيها أكثر من شهر ونصف الشهر . . .

كان الأمر الوحيد الذى يعتصر النفس اعتصاراً ، وينغص علىَّ الأيام والليالى ، هو ما يقاسيه رفاقنا الآخرون الذى ألقى القبض عليهم بعد تلك العملية . . .

رفاقنا فى الأصفاد ، يحتملون المحن الكالحة ، ويغالبون الألم فى سجون قاسم . . .

الموت يتربص بهم فى كل لحظة من اللحظات . . .

فعلينا أن نستجمع كل ما فى الوسع والطوق لمواصلة إنقاذهم . . . فتلك هى أقدس الواجبات .

لقد أحسست أن على كاهلى يقع العبء الأساسى من هذه المهمة، فعلىَّ احتمالها والمضى بها، من أجل إنقاذ أولئك الرفاق، سيما أنى لم ألحظ أدنى اهتمام لدى الآخرين إزاء هذه المسئولية التى كان يجب أن تكون فى طليعة مسئولياتهم.

وفى أوائل عام ١٩٦٠، بدأت محكمة المهداوى مهزلتها الفاجعة بمحاكمة أولئك الرفاق... ولقد علم الرأى العام العالمى والرأى العام العربى أى مأساة كانت تجرى فى العراق... ولقد علم الجميع أى نسق رفيع من البطولة الغضة قد مثله أولئك الشباب الذين وقفوا فى أقفاص الاتهام الشعوبى الغادر، وسيف الانتقام مصلت على رؤوسهم يتهددهم بين حين وحين...

لقد ضرب خالد على الدليمى، وإياد سعيد ثابت، وسليم الزيبق، وعشرات من رفاقهم البواسل أروع الأمثلة البطولية ووقفوا وقفة الواجب الأقدس حتى النهاية. وبدت محكمة الجور والجزر والافتراء مسرحاً شهد فيه العالم كيف تتفوق البطولة المؤمنة على كل القوى، مهما تعاظم حقدها المفترس.

هنا بدأت أفكر ملياً، والنفس تعتلج بالألم الدفين بكل وسيلة ممكنة لإنقاذ رقاب أولئك الرفاق... لابد أن يرتفع ذلك الصوت الذى أخرسه الحديد والنار فى بغداد...

وتنفيذاً لذلك، اتفقنا مع إذاعة صوت العرب، على أن تذاع

كلمة دفاع ورد ، فور رفع أية جلسة من جلسات « محكمة المهداوى » لفضح ما يدور فيها من تهم واهية وأكاذيب وأراجيف .

ولقد قدمت إذاعة صوت العرب ، بالفعل ، أجل الخدمات فى هذا السبيل ، إذ جندت عدداً كبيراً من موظفيها والعاملين فيها ، الساعات الطوال لمتابعة جلسات تلك المحكمة وتسجيل ما يدور فيها . كما أن عدداً من إخواننا قد ساهم فى إعداد كلمات الدفاع والرد على مفتريات المحكمة ، على رأسهم فائق السامرائى وعدنان الراوى . فكانت الردود التى تعد تذاع فور رفع الجلسة متضمنة تفنيد مزاعم محكمة الافتراء والدس الشعوبيين .

وما كادت تمضى بضعة أسابيع ، حتى اختتمت المحكمة جلساتها بأحكام الإعدام بالجملة ، على عدد كبير من الرفاق .

لقد بدأ الواجب ينادينى ، أن أطرق كل سبيل للانقاذ .

وفى القاهرة فكرت فى بحث الموضوع مع مستر نهرو سفير الهند فى الجمهورية العربية المتحدة ، وهو أحد أقرباء جواهر لال نهرو . ولقد هيأ لى كلوفيس مقصود فرصة اللقاء به ، على دعوة غداء أقامها القائم بأعمال السفارة الهندية فى بيروت . وإذ حدثته بالأمر ، وبضرورة العمل على إنقاذ رقاب رفاقنا فى العراق ، أبدى استعداده لنقل رغبتى مشفوعة بالمبررات التى عرضتها عليه ، إلى مستر نهرو رئيس وزراء الهند .

أما المحاولة الأساسية التي قمت بها ، فكانت تهدف إلى حمل رئيس جمهورية لبنان على التدخل من أجل إنقاذ أولئك الرفاق . وبالفعل سافرت إلى بيروت . من أجل ذلك ، وقابلت على بزى وزير داخلية لبنان آنذاك لصلته الوثيقة برئيس جمهورية لبنان ، وشرحت له الأمر ، وقدأبدى استعداده الكامل لعرض الموضوع على الرئيس شهاب .

ولقد كان لهذا الاتصال أثره البالغ فى إنقاذ رقاب رفاقنا من مقصلة الجزر القاسمى ، بالإضافة إلى الصلات العديدة التى قمت بها فى لبنان وفى الأوساط العربية المتعددة .

• • •

وبعد أن مكثت فى القاهرة أكثر من شهر ونصف ، عدت بعدها إلى دمشق .

ولدى عودتى إليها ، فوجئت بأجواء غريبة لا عهد لى بها من قبل . . . لقد بدأت أسمع من هنا وهناك ، بعض النقد لعملية الاغتيال . . .

ولكن لا بأس ، فما فى النقد من ضير . . . إن مهماتنا الملحة فى العراق بصفة خاصة ، تتطلب روحاً عالية من النقد . . . علينا أن نتحرر . بصورة مطلقة من ذهنية الانفعال حيال النقد . ولكن الأمر ، كان أكثر من مجرد نقد . . . إذ بدأت أسمع أصداء من

نغمة جديدة ، لم أعهدها ، من قبل . . . بدأت أشهد مسالك من التكتل اللامسئول . . .

أكان بوسعى أن أرد على التلفيقات والأباطيل التى بدأت أسمعها من الرفاق ؟ . .

ألا ما أعسر ذلك ! . . . فإن دون ذلك فضح لما ينبغى أن تطويه الصدور يومذاك . . .

كنت أقول فى نفسى : « صدور الأحرار مقبرة الأسرار ! » . . فلا أقلّ من أن أكون حراً من أولئك الأحرار الذين يزخر بهم وطنى ! . . .

وأخيراً فلابد أن ينبلج الصبح ، ويمزق ضوؤه كل ستار ! . . . فقليلا من الصبر ، . . . ولكن الصبر طال ، ولم ينفد . . .

تجرعت كأس هذا « الصبر » أكثر من ثلاث سنين ، وأحمد الله ، أنى لم أغص به ، ولا هدّنى احتمال هذا الصمت الطويل . . .

أما أولئك الذين هرفوا دون أن يعرفوا ، فلهم منى صادق العذر . . .

والذين كانوا يهرفون وهم يعرفون ، فليس لى إلا أن أقول لهم ، بعد كل هذه السنين :

إن غرابيلهم لن تحجب نور الشمس ... وإن أحداً لن يستطيع أن يخدع كل الناس ، كل الوقت ...

لقد عدت إلى دمشق ، ووجدت هناك بعض الرفاق ، وقد انقلبت أحكامهم ...

وما كان فى هذا ما يضيرنى بشىء قط ، لو أن هذا الانقلاب فى الأحكام قد جرى على أساس من النقد الذاتى الواعى المسئول ، وعلى أساس يستوحى العقيدة ، بعيداً عن العوامل السياسية الطارئة والدوافع الشخصية ...

ولكنْ الذى كان يحزُّ فى النفس هو أن الأحكام كانت تُلوى أعناقُها ، لتبرر مواقف سياسية ومصالح ضيقة ، يراد لها أن توضع فوق المصلحة القومية .

كان كلُّ شىء فى تلك الأجواء غير جدير بأن تستنبط منه أحكام سليمة وقويمة ...

كانت الأجواء قد بدأت تشـــوبها عوامل تكدّر نقاءها وصفاءها . . كانت المواقف والقضايا لا تُشبع درساً وتمحيصاً ، بوحى من العقيدة والمصلحة القومية ، وإنما أخذت الأحكام والمعايير تخضع إخضاعاً لدعم هذا الموقف أو ذاك ، وسط التيارات السياسية المتلاطمة .

كان كل شيء يشير بوضوح ، إلى أن ثمة شيئاً غريباً ونشازاً في سياق الدرب القومي قد بدأ يتكون . . . وإن مرور أكثر من ثلاث سنين ، شهدنا فيها أخطر الأحـــداث والتطورات السياسية ، جاءت تؤكد أن ذلك الشيء الغريب النشاز كان قد بدأ يتكون . . . في ذلك الحين .

القاهرة

في ١٥ شباط (فبراير) ١٩٦٣

صدر للمؤلف :

القومية . . . حركتها ومحتواها

الكتاب العقائدى الذى يرسى معالم نظرية العمل القومى . . .
ويشير إلى طبيعة الحركة التاريخية للقومية . . . ومحتواها . . .

الكتاب الذى يحدد طريق العمل والنضال . . . الكتاب الذى يشير إلى مغزى التطور فى المجتمع العربى .

القومية . . . حركتها ومحتواها . . .

الكتاب الذى تضمن تحديداً عقائدياً مسئولا لحركة القومية خلال التاريخ . . . والذى احتوى المعالم الأساسية لنظرية الأسلوب والعمل والنضال العقائدى ، وأهمية القيادة الاستراتيجية والتكتيكية فى الحركة الثورية . . .

الكتاب الذى يستعرض ، بمسئولية عقائدية ، طبيعة المعركة العربية المعاصرة والقوى الأساسية المتناحرة فيها .

الكتاب الذى يعين الوجهة التاريخية التى تتطور نحوها القضية العربية . . .

الوحدة العربية والطريق إليها .

الاشتراكية العربية والطريق إليها .

الديمقراطية العربية والطريق إليها .

وصدر للمؤلف

على طريق الثورة

بحوث ودراسات فى الثورية والثورة . . . دراسات مسئولة معمقة فى معركة العرب الراهنة فى الساحات الرئيسية منها . . .

فى فلسطين . . . فى ثورة الجزائر . . . فى ثورة اليمن . . . فى ثورة العراق . . . فى حقول البترول . . .

دراسات فى الوحدة والطريق إليها . . .

بحوث عقائدية فى تقييم العمل الأخلاقى فى الحركة الثورية . . .

أهمية التنظيم والعمل الشعبى . . .

وصدر للمؤلف

العمال والقضية القومية

الكتاب الذى يحدد الدور الطبيعى للطبقة العاملة فى النضال القومى . . .

الطبقة العاملة والأمة والقضية القومية .

الكتاب الذى يعين دور العمال وواجباتهم القومية فى مرحلة المجتمع الاستغلالى . . . دور العامل فى النضال من أجل التحرر القومى . . .

الكتاب الذى يحدد دور العمال وواجباتهم القومية فى مرحلة المجتمع الاشتراكى ... دور العامل فى النضال البناء من أجل إقامة صرح اشتراكى راسخ فى الوطن العربى الواحد .

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي



طبعت باستوديو راف